يسف السباعي

الشيخ زعرب وآخرون

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

معجزات هذا البلد فى عصرنا ثلاث :

« أم كلثوم » و « عبد الوهاب » و « الريحانى »

وقد سبق أن أهديت كتابى « أغنيات » إلى المعجزتين الأولى والثانية . ويبدو لى أن المعجزتين إما تجهلان القراءة ، أو تجهلان الذوق ، لأنهما لم تشعرانى بأنهما أحستا بالإهداء .

وأشعر رغم ذلك أن من واجبى أن أهدى كتابى هذا إلى المعجزة الثالثة . يشجعنى على ذلك أنها خرجت عن نطاق البشر وأضحت فى عداد الأرواح وأنها بذلك ستجتنبنى — لا محالة — مشقة جحود الأحياء .

فإلى روح « الريحانى » أهدى كتابى هذا ، فهو أحق من سواه .

بـ « الشيخ زعرب وآخرون » .

يوسف السباعى

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

هذا الكتاب توأم لـ « أبو الريش » . . والتوأمان مصريان أصيلان منتزعان من صميم الحياة المصرية الأصيلة . . بين الحوارى والدروب . . أو بين « أبو الريش وجنينة ناميش » .

ولئن كان رابط القصص فى مجموعة « أبو الريش » هو عامل المكان . . فإن رابطها فى الشيخ زعرب هو الشخصية . . والرابط فى كلا التوأمين كما قلت مصرى أصيل . . ولذا فليس هناك حداً فاصلا بين التوأمين .

فالشيخ زعرب وآخرون قد يعيشون فى « أبو الريش وجنينة ناميش » وما بينهما . . . وكذلك قد تحوى دروب « أبو الريش وجنينة ناميش » الكثير من أمثال الشيخ زعرب وزملائه .

ولست أدرى ما إذا كان هذا النوع من القصص المحلى الفكاهى الساخر يرضى جمهرة قراء البلاد العربية كالعراق وسوريا ولبنان ومراكش وغيرها من الشقيقات الناطقات بالضاد والذين يشاركون القراء المصريين فى استيعاب جزء كبير من إنتاج الأدب العربى .

لست أدرى مدى رضاء هؤلاء الإخوان عن مثل هذا النوع من الإنتاج ولكن الذى أدريه هو أن هذا النوع شىء

واجب . . فهو لا يعدو تسجيل لوحات كائنة فى حياتنا . . بل إنها هى حياتنا فعلا . . وإذا لم يسجل الكاتب حياة قومه . . فمن يسجلها ؟

بقيت كلمة أحب أن أوردها فى هذا التقديم . . وهى دهشى من ذلك الانزعاج الشديد الذى يصيب البعض عند ما يصطدمون — على حد قولهم — هنا وهناك ببعض الأغلاط اللغوية .

وإنى أوافقهم على أن هذه الأخطاء على قلتها أشبه بالأتربة التى قد تؤثر تأثيراً ظاهرياً على بهجة الكتاب . . ولكن أعتقد أن مهمة الإزالة هذه توكل دائماً إلى المصححين ، وأن الكتاب يمر قبل الظهور على ما لا يقل عن أربعة من ذوى العمائم والنمائم . . فإن بقيت به بعد ذلك أتربة فهو تقصير من مزيلى الأتربة اللغوية أو كَنَّاسى اللغة .

ولكن ذلك لا يجب أن يدعو البعض إلى مثل هذا الانزعاج الذى يبدونه ، فاللغة أولا وآخراً لا تزيد عن وسيلة للتعبير وصحتها تقاس بقدرتها على إفهام الغير ما تود قوله ، والتأثير على نفسه بما فى نفسك وإشراكه معك فى تفكيرك ومشاعرك .

وإذن فمن الخطأ أن نباشرها كشىء معقد فى ذاته ، ثقيل فى مباشرته ، بل يجب أن تكون لدينا الجرأة فى التحلل من كثرة قيودها وتعدد نظمها وقواعدها ، وتشكيلاتها وتصريفاتها .

وإنى أعتقد أن الزمن كفيل بذلك . . فهو جار فعلا فى تخفيف اللغة بما يناسب تطور التفكير ، ولست أشك فى أن تسعة وتسعين فى المائة من القراء لا يشعرون قط بما قد يصادف هؤلاء البعض من الأخطاء التى تصدمهم وتزعجهم .

وما دامت أمثال هذه الأخطاء وهى غير متعمدة لا تحس بين الأغلبية الراضية . . فليس على الأقلية المنزعجة إلا أحد أمرين : إما تعودها حتى تصبح فى حكم الصواب ، وإما إراحة أنفسهم بتصحيحها فى سكون .

إن مباشرة اللغة العربية كحرفة معقدة مليئة بالنظم والقواعد شىء يجب أن يزول .

وهو أمر يحتاج إلى جرأة قدير كجرأة « دانتى » حينما ترك اللغة اللاتينية جانباً وجعل من الإيطالية المحلية لغة أدب .

وبعد ، أرجو ألا يكون فيما كتبت مزيد من إزعاج لمحترفى اللغة .

يوسف السباعى

obeikandl.com

الغلاف بريشة الفنان الحسين فوزى

صور الكتاب بريشة الفنان كمال

obeikandl.com

obeikandl.com

الشيخ زعرب

ما زالت مصر بلد العجائب والمتناقضات . . . وهذا الخليط فى ميدان الغفير خير شاهد على ذلك ... فداخل السرادق وخارجه يبدو أكبر تناقض يمكن أن تقع عليه عين . . . تحت السرادق تصطف الحكومة المصرية الفاخرة ... وخارج السرادق يحتشد الشعب غير الفاخر .

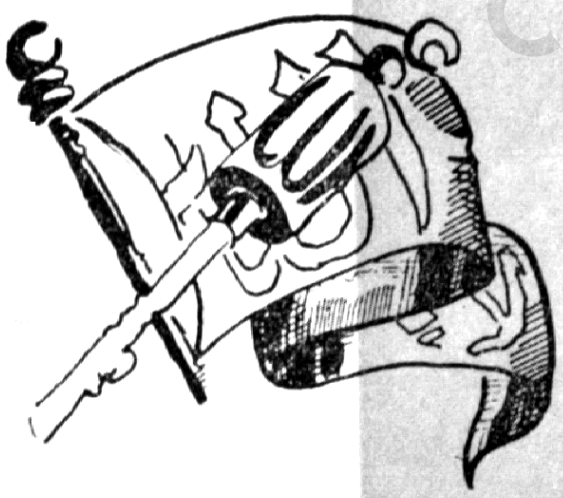

obeikandi.com

obeikandl.com

قبل أن أقص عليك قصته .. تعال معى نجول جولة فى وجهه .

رويداً .. رويداً .. حتى لا نضل بين الأخاديد والتجاعيد والوهاد والنجاد .. لنبدأ « من فوق لتحت » .. من أعلى قمة له .. حيث يقوم طرف زر بلا زر .. قصير أشبه بعقب السيجارة .. يعتلى طربوشاً .. ليس به من سمات الطرابيش إلا هيكله المنهار الجوانب المطبق الجدران ، أما اللون فأسود أغبر تكوّن من خليط من تراب وعرق ، ولنهبط بعد ذلك إلى وجهه ، فنستقر على جبينه برهة .. حيث يصادفنا أول نتوء فى منتصف الجبين .. نتوء أشبه بكالو وارم منتفخ .. رفعت عنه حافة الطربوش التى بدا من أسفلها شىء أشبه بحرف طاقية بيضاء .. أو منديل رأس .. يعصب به الرجل رأسه حتى لا يكبس ذلك الطربوش على نافوخه ، وتمر بالنتوء البارز أخاديد متعرجة متوازية تنحدر يميناً وشمالا فى جبين الرجل حتى تصل إلى الأذنين .. يقطعها من أسفل أخدودان رأسيان يمران بين العينين ويستقران على أعلى الجبهة فى وجه الرجل ، والنتوء من أهم الظواهر فى جبين الرجل ، وهو لا يستمد أهميته هذه من هيئته الطبيعية

بل من قيمته المعنوية .. فهو بمثابة مواهب ومستندات وشهادات على ولاية الرجل، وإدمانه الصلاة والعبادة والسجود.

إن هذا البروز .. هو زبيبة الصلاة .. وآية الورع والتقوى.

لنعبر زبيبة الصلاة .. أو كاللو التدين والولاية .. ولنهبط بين العينين فنستقر على أرنبة الأنف ولنقلب البصر ذات اليمين وذات اليسار بين العينين والأذنين.

فأما الأذنان فعريضتان .. كأنهما جناحا خفاش أو أذنا حمار، وأما العينان فمن الجور أن نسميهما عينين .. فهما لاتعدوان أخدوداً أكثر عمقاً يتمم أخاديد الجبين، ولولا ارتجاف فى الجفن بين آونة وأخرى، ولولا تعودنا أن نجد عينين فى هذا المكان من الخلقة الآدمية، لما اعترفنا بعينى الرجل، ولما أحسسنا لهما وجوداً !.

أما وقد توقفنا أمامهما، واعترفنا بوجودهما .. فليس هناك بد من التمعن فيهما، والتحقق فى أوصافهما .. الرموش أو بقايا الرموش دائمة مسبلة، والجفون مغلقة مطبقة .. فإذا مافتحت دفعت إلى الذهن قول شوقى «مقروح الجفن مسهده». فلا أظن هناك مثلا أفضل منها للجفون المقروحة

الدامية الذابلة ، ويعلم الله أمن سهد قرحها أم من رمد . . ! على أية حال .. إن الرجل من أولياء الله وعشاق الرسول .. فهو والحال كذلك يدخل فى زمرة العشاق ، وسهد العشق لايستبعد على مثله ! .

فإذا ماتركنا العينين إلى الأنف ، وجدنا أنفه هيئة ضخمة محترمة . . تشغل من فرط عرضها وضخامتها ثلثى مساحة الوجه ، وهو من حيث الشكل أشبه بالطربوش السابق الذكر . . ليس له هيئة محدودة . . بل هو منبعج مفرطح ، ملىء بالمسام والشعيرات .

فإذا هبطنا من الأنف ، وجدنا أنفسنا قد استقررنا فجأة على الشفة العليا . . أو بتعبير أصح الحافة العليا للفم . . دون أن نعبر المسافة المفروض أن توجد بين الأنف والشفة التى ينبت فيها الشارب فى الوجوه الآدمية الأخرى ، ويعلم الله . . إذا كان لتلك المنطقة المستترة وجود فى وجه الرجل . . أم لاوجود لها ! فإن طرف الأنف قد تدلى ، حتى أخفى ماوراءه . . فبدا شارب الرجل وكأنه قد نبت من طاقتى أنفه ، واختلط بذقنه البيضاء الشعثاء الهابطة من شحمتى لأذنين إلى منتصف الصدر ، والتى يحيط بها . . المستند الثانى

لولاية الرجل ، وهو المسبحة المعلقة حول عنقه المدلاة على صدره . .

استرح برهة ، وخذ نفسك . . فأغلب ظنى أن الملل والتعب قد أصابك من تلك الجولة المنهكة فى هذا الوجه المقفر الخرب .

لاتريد أن تستريح ! . ذنبك على جنبك .. هيا بنا وراء الرجل لنرى إلى أين يذهب .

إن اليوم لديه يوم مشهود فقد ارتدى بدلة النشريفة الكبرى ، وأخفى هلاليله بعباءة فضفاضة حمراء خضراء وأمسك فى يده عصا المرشالية وهى أشبه بالعصى التى تستعمل فى تنظيف الأسقف والتى توضع فى نهايتها (رأس العبد) . لاتختلف عنها إلا فى أن زعرب استبدل بالعبد كلمة (الله) منقوشة على صفيحة أشبه بشخشيخة تتدلى منها شرابة كانت فيما مضى (دكة لباس) ! .

لنذهب وراءه . . حتى يستقر المقام بنا وبه فى أرض الغفير حيث الاحتفال بالمحمل .

الميدان فسيح . . قد اصطفت فى منتصفه قوات الجيش مابين فرسان ومدرعات ومشاة ، والجنود متأهبة والمدافع منصوبة . . كأننا فى ميدان قتال ، والنداء يعلو من مكبر

obeikandl.com

الصوت فتهتز الاسلحة وترتفع وتنخفض ، والله وحده يعلم ماصلة كل هذا بالمحمل .

لننتظر .

أين المحمل ؟ وأين الشيخ زعرب ؟ .

هاهما هناك .. فى أحد أركان الميدان ، وأمامهما صفت السرادقات المقامة فى واجهة الميدان وقد تكأكأ فيها حشد من القوم يتطلعون بأبصارهم فى لهفة . . إلى لاشىء . . ويتشوقون إلى مشاهدة ماسبق أن شاهدوه عشرات المرات بلاتغيير ولاتبديل .

وتبدو بضعة جمال . . بينها جمل مصبوغ بالحناء ، وقد وضع على رأسه منفضة .. أى والله منفضة ريش لاتختلف قيد أنملة عن المنافض التى يزيلون بها التراب عن الأثاث ، ويأخذ الجمل فى البعبعة والكركرة ، ثم يجذب قائده مقوده إلى أسفل ويبركه على الأرض ، ويأخذ طابور من جنود بلوك الخفر المرتدين الفانلات الصوف البنى فى حمل الهودج المستقر بجوار الجمل ليضعوه على ظهره ويثبتوه به .

ويرفع الجنود الهودج بعد أن يحيطوا به من كل ناحية فى الوقت الذى ينطلق فيه الصياح من حناجر « طقم المحمل » منشدين بصوت نشاز بضعة أناشيد لا يفهم لها معنى . .

ملتفين حول اجمل البارك ، و بينهم الشيخ زعرب يهتز مترنحاً وقد رفع عقيرته بالغناء .

يظل الهودج يتمايل بين يدى الجنود ، وهم يحاولون تثبيته على ظهر الجمل ، والثلة العجيبة ، من الأولياء وأهل الله تترنح وتتمايل وتنعق فاغرة أفواهها كالغربان وقد تكون منهم خليط مضحك يعجز أقدر المسارح الكوميدية عن إخراج مثله . . فنى خلقهم عجب ، وفى لبسهم عجب . . تراهم ما بين أكرش منبعج ، وهزيل نحيل ، وأعرج وأكتع وأحدب وأعور . . قد غطوا أجسادهم بعباءات صفراء ووضعوا على رءوسهم عمائم بدت فى مجموعها أشبه بقوس قزح . . فهذا قد لف عمامته بشال بنفسجى ، وذاك بشال فستقى ، والآخر بشال أحمر انجليزى .

وينتهى القوم من تثبيت الهودج على الجمل . . عندما تسمع فى الجو أصوات صفافير وقرقعة متوسيكلات . . ثم تبدو عربة حمراء فخمة أنيقة ، وينطلق صوت المكبر آمرا الجنود :

« سلام نائب الملك » .

فترتفع الأسلحة وتنخفض ، وتبدأ المدافع قصفها والموسيقى عزفها .

ويقف زعرب وسط جمهرة الأولياء . . يقلب البصر فيما حوله . . ثم يرفع شفته السفلى . . اشمئزازاً ، ويهز رأسه عجباً !

كل شيء كما هو . . لاجديد فى ميدان الغفير . . ولا فى غير ميدان الغفير .

مازالت مصر بلد العجائب والمتناقضات ، وهذا الخليط فى ميدان الغفير خير شاهد على ذلك . . فداخل السرادق وخارجه يبدو أكبر تناقض يمكن أن تقع عليه عين .

داخل السرادق .. تصطف الحكومة المصرية الفاخرة ، وخارج السرادق يحتشد الشعب المصرى . . غير الفاخر .

ويأخذ المحمل فى الاستعداد للتحرك ، وتصطف أمامه صفوف من الجند بالملابس البيضاء ، ويعلو صوت المكبر صائحاً : « سلام المحمل سلاح سلام » ! .

وتصدح الموسيقى ، ويبدأ المحمل سيره فى لفة ضيقة ، وقد سار وراءه موكب من الجمال . . يعلوها نافخو المزامير وبعض المشاة من أولياء الله ، واندس بينهم الشيخ زعرب .

وبدأ الشيخ زعرب يعد اللفات فى سره .

طبعاً سيلف المحمل سبع لفات كما يفعل فى كل سنة !

عجباً .. لم كانت سبعاً ، وليست ستاً أو ثمانى ؟ .. هذا شىء علمه عند أهل الدين .

ولكن ماالسبب لأن يلف المحمل حول نفسه فى ميدان الغفير ؟ . وماالسبب فى وجود كل هذا الجيش ؟ .

علم ذلك عند الله وحده .

ويبدأ قصف المدافع .. والشيخ زعرب لا يخاف شيئاً كهذا الدوى . . فهو يذكره بأيام الغارات . . وأخذ جسده ينتفض عقب كل طلقة . . وأخذ يرفع بصره مستنجداً بالمحمل . . ثم انتقلت عيناه من هودج المحمل إلى الهياكل الخشبية التى وضعت عليها الكسوة الشريفة وقد طرزت عليها بالقصب آيات قرآنية كتبت بخط جميل تشابكت حروفه .

وهز زعرب كتفيه فى عجب ! وساءل نفسه : ماذا يضيرهم لو كتبوها بطريقة مقروءة ؟ ! أم تراهم كتبوها غير مقروءة من أجل الذين لا يعرفون القراءة ؟ !

وانتهى المحمل من لفاته السبع . . وبدأت القوات العسكرية تتحرك للمرور فى الاستعراض . . ووقف زعرب يرقب ذلك الجمع الهائج المائج ، وشرد به الذهن إلى زمن مضى يبدو له غير بعيد ، كأن السنين الغابرة التى تفصله عنه

قد تقلصت وانكمشت ، فبات منه على قيد ليال وأيام أو بات أقرب إليه من أمسه القريب .

كان أول عهده بالمحمل منذ خمسين عاماً ، وقد جلس يرقبه من طابونة أبيه فى حى الحسين ، وكان الناس قد تكأكأوا فى الشارع حتى لم يبق هناك موطىء لقدم . . واشتد الازدحام فى النوافذ وفوق الأسطح حتى بات الناس كأنهم ذباب حط على قطعة حلوى !

وبدت بشائر الموكب وظهر المحمل يتهادى ، ووراءه المزامير تنفخ والأناشيد تتلى والدعوات تتعالى ، وبين تلك الأصوات المختلطة كان يعلو صوت صرخات حادة ، وأخذ زعرب يبحث عن صاحب الصوت . . حتى وقع بصره على مخلوق عجيب قد لف فى أسمال حمراء خضراء صفراء زرقاء بيضاء سوداء ، وأحاط عنقه بقلائد من الودع وصغار المحار ، وأخذ يقفز ويتواثب ويتراقص وراء المحمل صارخاً بأعلى صوته : « أنا فى جاه النبى » !

وسأل أباه عن هذا المخلوق الراقص الصارخ ، فأجابه بأنه الشيخ كتكوت أحد مجاذيب الحسين ، وهو رجل به (هفة) تدفعه كل عام إلى أن يعدو وراء المحمل بهذه الهيئة ولا يهدأ له بال حتى يشيع المحمل إلى نهايته .

وتعوّد بعد ذلك أن يرى الشيخ كتكوت كل عام وهو يعدو وراء الموكب مستغيثاً بجاه النبي ، وانطبعت صورة الرجل فى ذهنه على هيئته تلك . ولم يعد يتصور أن الرجل يمكن أن يكون إلا على هذه الحالة من العدو والصياح . . حتى كان ذات يوم وقد جلس فى الطابونة بجوار أبيه يرقب أقفاص العيش الخارجة ويرصد الحساب الداخل ، ويأمر وينهى بين الخبازين والفرانين عندما سمع عواء أشبه بعواء كلب جريح وصيحات متتابعة « حرامى » .

وترك مقعده واندفع إلى خارج الطابونة يتبين جلية الأمر . . فإذا به يرى الشيخ كتكوت يعدو ، ولكنه كان هذه المرة بلا محمل يتقدمه ، بل بموكب من الرجال والصبية يعدون وراءه . . ينهالون عليه بالعصى والطوب وهو يطبق بجنون على رغيف فى يده ويصيح بأعلى صوته ، كما تعود أن يصيح : « أنا فى جاه النبى » ، ولكن كان هناك فى هذه المرة مايستحق الاستغاثة .

وتكاثر القوم على الشيخ كتكوت .. يحاولون نزع الرغيف من يده . . منهالين عليه بالسباب والشتائم ، وكان الرجل قد بلغ باب الطابونة ، ولم يجد أمامه ملجأ سواه .. فانحرف فيه فجأة مختفياً داخل الطابونة مبتعداً عن مطاردة الناس له .

وتكأكأ القوم على الباب ، ووقف زعرب فى طريقهم يمنعهم من الدخول ، وصاح به أحدهم :

ـ إمسك الشيخ كتكوت الحرامى . . المجرم . . لقد رأيته بعينى يسرق الرغيف من فوق القفص .

وبلا تفكير مد زعرب يده إلى أحد الأقفاص المرصوصة فى الداخل وأعطاه للقوم ، وصاح بهم :

ـ ما هذا الضجيج .. إن الرجل لم يسرق شيئاً .. ها كم الرغيف المسروق انصرفوا وشأنكم .

وتفرق القوم مخذولين محسورين .. فما كانت المسألة مسألة رغيف ... بل كانت رغبة فى الأذى وحباً فى الشر ا..

والتفت إلى الداخل فوجد الشيخ كتكوت يقف وراء كوم من الأقفاص وقد أطبق بأسنانه على الرغيف يقضمه بنهم وعجلة كأنما يخشى أن يستعيده منه القوم .

ومضت عليه برهة وهو فى مكانه لايريد الانصراف ، أو كأنه قد أضحى فى مأمن لا يود تركه .

ولكن زعرب أنبأه أنه يستطيع الانصراف بالرغيف آمناً مطمئناً ، دون أن يخشى شيئاً . . وعاد إلى داخل الطابونة . . فسأله أبوه عما هناك فأخبره بما رأى وما فعل .

واستحمقه أبوه ، وانهال عليه باللوم والتقريع ، وأنبأه

أن هذا الرجل الذى أحسن إليه بالرغيف لا يستحق الحسنة لأنه يملك آلاف الجنيهات .. جمعها من التسول .. إنه يعرفه تمام المعرفة ، وأنه إنما يدعى الجوع والفقر ليأخذ ما يريد .. وأصر على أن يخصم ثمن الرغيف من مصروفه .. حتى يعطيه بذلك درساً لا ينساه .

ومرت السنون ، واختفى المحمل ، واختفى معه الشيخ كتكوت ومات أبو زعرب .. وآلت إليه الطابونة بما فيها وأضحى هو صاحب الأمر والنهى .

وأثمر فيه درس أبيه .. فلم يحاول أن يحسن قط .. بل كان كل همه هو جمع المال .

وانتعشت أعماله ، وزاد رزقه واتسعت موارده .. وبلغ أوج مجده وارتفعت قمة غناه ، واطمأن إلى الدهر .. حتى خذله الدهر فجأة .. عندما حدث حريق فى الطابونة ذات ليلة .. فأتى عليها وأودى بما فيها ، وأصبح عليها الصبح التالى فإذا بها خليط من هشيم ورماد .

وكانت صدمة مروعة عنيفة .. لم يفق منها حتى الآن .. وانحدر به الحال .. حتى بات لا يجد له مرقداً ولا مأوى إلا على قارعة الطريق بجوار الحسين وسط تلك الثلة من المجاذيب والأولياء .

وهكذا دخل فى زمرة المجاذيب ، وطبعته السنون بطابع أولياء الله ، وأنبتت له الزبيبة السالفة الذكر ، واتخذ مكانه المختار على مصطبة قيل له إنها كانت من قبل لرجل يدعى الشيخ كتكوت ، كان من أولياء الله الصالحين لم يرتكب فى حياته سيئة أو يفعل منكراً ، سوى أنه سرق رغيفاً ذات مرة عندما ضاق به الحال حتى أوشك أن يموت جوعاً !.

وصاح زعرب بمحدثيه :

— إن الشيخ كتكوت لم يسرق . . فقد رد الرغيف إلى أصحابه .

ومن أدرى بذلك سواه ؟!

ووجد زعرب نفسه يسير فى ذلك الطريق الذى سلكه سلفه الشيخ كتكوت ، ولم يكد الاحتفال بالمحمل يعود إلى سابق عهده بعد طول اختفاء . . حتى اتخذ زعرب مكانه وراء الموكب . . يعدو راقصاً صائحاً « أنا فى جاه النبي » ! .

* * *

وعاد زعرب إلى نفسه وأفاق من شروده . . عندما بدأت المدافع تطلق تحية لنائب الملك وهو يهم بالانصراف . . وتحركت العربة الفخمة تليها بقية العربات فى عجلة وتزاحم كأنها فى سباق .

وبدأ الموكب يستعد للسير . . هابطاً إلى شارع العباسية ثم شارع فاروق وقد تكأكأ الناس على جوانب الطريق واحتشدوا فى النوافذ والشرفات .

وأخذ سيل المجاذيب يتدفق وراء المحمل ، وانطلقت الزغاريد وتعالت المزامير ، والطبل البلدى ، وأضحى الموكب أشبه برقصة راقصة .

واتخذ زعرب مكانه وسط المجاذيب ، وبدأ فى الرقص والصياح . . عندما مر بذهنه فجأة قول الرسول : « إنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » .

وتلفت حوله باحثاً فاحصاً وحاول أن يجد فيما حوله شيئاً يستحق أن يباهى به الرسول ، ثم هز رأسه متشككاً وقال لنفسه :

« شدما أخشى أن نخذلك يارسول الله » . . وسرعان ما أبعد عنه خواطره ثم اندفع فى الرقص والصياح : « أنا فى جاه النبى » . !

* * *

وأخيراً انتهى الموكب . . أو الزفة ، ووجد زعرب نفسه يعود فى النهاية إلى جحره متعباً مكدوداً وقد نال منه الإعياء ، وأحس بمقارصة الجوع فما دخلت جوفه لقمة

واحدة طول اليوم ، ولم يكن يملك شيئاً يستطيع أن يشترى به طعاماً . ومر بخاطره أن حرفاً واحداً من تلك الحروف المختلطة التى طرزت بها الكسوة . . كان يمكن أن يهيء له ولعشرة من أمثاله وليمة فخمة . ولكن من يدرى بوجوده أو يشعر بجوعه !

ووقع بصره فجأة على حانوت للعيش قد رصت فى دولاب فى واجهته الأرغفة وقد أخذ سطحها المنتفخ يبرق متورداً . . وخطر له أن يمد يده فيخطف رغيفا ، ولكنه تذكر الشيخ كتكوت وتذكر مصيره عندما سرق الرغيف وتخيل كل سكان الشارع وقد أخذوا يعدون وراءه ، ويشبعونه ضرباً ولطماً . . كأنه بسرقته الرغيف قد أماتهم جوعاً .

ووقف برهة يحملق إلى الأرغفة شارد الذهن غارب البال . . عندما أحس يد توضع على كتفه وسمع صوتاً يناديه :

— تفضل ياشيخ .

وتلفت وراءه فوجد صاحب الحانوت بصديريته المخططة وسرواله الطويل ، وجسده النحيل وقد مد يده إلى الدولاب فأخرج أحد الأرغفة وأعطاه له .

هذا آخر ما كان يتوقعه ..

وأخذ زعرب الرغيف فى إطراق وصمت ، وبدا له كأنه يعرف صاحب الوجه من قبل . . ولكنه لم يتذكر أين رآه ! . ولا من هو .

وقبل أن ينصرف زعرب قال له الرجل :

ــ احضر إلىّ كل يوم حتى أعطيك رغيفاً .. سأجعله راتباً يومياً لك .

وتمتم زعرب ببعض الدعوات ثم أدار ظهره وهمَّ بالانصراف .

ولكنه لم يكد يخطو خطوة حتى أبصر صبياً يفد على الحانوت ويصيح بصاحبه :

ــ اعطنى أقتين يامعلم كتكوت .

كتكوت ! . كتكوت ! . . أجل لقد تذكر . . إن هذا الشبه هو شبه الشيخ كتكوت بعينه . . إن الرجل لاشك إبنه .

عجباً ! . . أبعد هذا العمر الطويل . . يرد الدين بالربح المركب ! ؟

حقاً . . « إفعل المعروف وارمه البحر » فهو لاشك مردود إليك وإلى ذريتك من بعدك ! ! .

حسن افندى

هذه قصة يرويها « طربوش حسن أفندي » .
هل سمعتم عن حسن أفندى ؟ أجل . . أجل . .
انه هو حسن أفندى الشهير صاحب النكتة اياها .
ماذا تقولون ؟ . . ان بعضكم لا يعرفها ! !
وتطلبون منى أن أرويها لكم . . لا . . لا . . عيب
جداً . . هذا كلام لا يروى . . ان كل ماأستطيعه هو
أن أدع « طربوش حسن أفندي » يروي قصته .

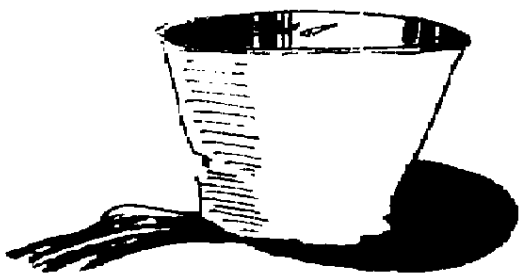

obeikandl.com

أنا لا شك طربوش قدير .. طربوش « بهلوان » . . ولو لم أكن كذلك لما استطعت أن أستقر لحظة على رأس حسن افندى .. من فرط « ماعوجنى » على حاجبه الأيمن .. إنى لا أكاد أبصر نفسى فى المرآة حتى يصيبنى الذعر ويخيل إلىّ أنى سأهوى من فوق رأسه .. ومع ذلك .. فما هويت قط .. بل استطعت أن أحتفظ بتوازنى دائماً ، حتى فى الأوقات الحرجة التى ينهمك فيها حسن افندى فى تلعيب حواجبه على سبيل « البصبصة » .

إن حسن افندى رجل بصباص . . لا يشغل رأسه فى الحياة شىء كالنساء . . وهو لذلك شديد « العياقة » . . وكل « عياقته » تنصب علَّى وعلى شاربه

إنى أبصره الآن أمامى ، وقد تمدد فى فراشه . . وعلا شخيره وصفيره . . وبدا منظره كأقبح ما يكون إنسان . . وقد تعرى جلبابه عن ساقين كالجريد . . ومال كرشه على أحد جوانبه ، وانفرجت شفتاه الغليظتان فى بلاهة لتخرج أنفاسه الصاخبة .. وتهدل شارباه .. وأسبل جفناه ، وغطى رأسه بطاقية بيضاء مخططة .

كانت الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر . . وقد تناول

حسن افندى غداءه فى « المسمط » القائم على ناصية الشارع والذى تعوّد أن يتناول فيه غداءه كل يوم حتى لقد مللت أنا نفسى منظر لحمة الراس وفتة الكوارع .

وبدأ حسن افندى يتقلب على جنبيه . . ويفرك بيديه أجفانه ، ويتثاءب ويتمطى ، ثم نهض من فراشه أحمر العينين منتفخ الوجه ، ودس قدميه فى القبقاب . . وسار يقرع به أرض الحجرة متجهاً إلى الحمام .

وسمعته « يتنخم ويتمخط » ثم بدأ يرفع عقيرته بالغناء صائحاً بصوته النشاز :

« يامالك قلبي بالمعروف .. حبك كوانى تعالى شوف ».

وأخيراً خرج من الحمام ، وقد أغرق رأسه ووجهه بالمياه ، وأمسك بمنشفة ، أوعلى الأصح بممسحة ـ فقد كانت من فرط قذارتها لا تصلح إلا لمسح البلاط ـ ، ووقف أمام المرآة يمشط رأسه بتؤدة وعناية .

وخلع الرجل جلبابه .. ووقف بالقميص « الكريشة » واللباس « البفتة » الواصل إلى ماتحت ركبتيه وأخذ يتحسس عضلاته ، ويحرك يديه إلى أعلا وإلى أسفل فى شبه تمرينات رياضية .

ومد يده فسحب القميص من فوق المشجب وأخذ

فى ارتدائه ، وأحكم ربط الكرافتة حول الياقة المنشاة التى قد علاها إطار من العرق والقذارة ، ثم دس ساقيه الرفيعتين فى بنطلون أخرجه من تحت مرتبة السرير .

وأتم الرجل ارتداء ملابسه . . واطمأن على المنديل الحريرى فى جيب الجاكتة . . وعلى كتينة الساعة فى جيب الصديرى .. وأخذ يفتل شاربيه بعناية بالغة ، واضعاً عليها بعض الكوزماتيك .

وبدا عليه الرضا التام . . ومد يده إلىّ فنقرنى بأصبعه بضع نقرات أثار بها من جسدى هاجع الأتربة . . فعلتنى سحابة قاتمة من الغبار .. وأخذ يمسحنى بكمه بشدة حتى انجلى عنى معظم مابى ، وأحسست بشىء من الخفة والنشاط .

ونظر إلى المرآة ووضعنى على رأسه بعناية بالغة ، وميل شديد على أحد حاجبيه .

وخيل إلىّ أن ميلى على حاجبه فى هذه المرة أكثر من المعتاد . . وبدا لى من حركاته أنه مقدم على أمر جلل . . وخاصة بعد أن أبصرته يمسح حذاءه فى ساقى بنطلونه .

وأخيراً .. وبعد أن اطمأن على منظره تماماً . . تناول عصاه ، وغادر الحجرة هابطاً الدرج فى ثقة واعتزاز .

وكنت أعرف طريقه الذى لا يحيد عنه ، ووجهته التى

لا يقصد سواها .. وهى دكان الأسطى زكى المزين . الكائنة فى شارع خيرت ، فهو يهبط من البيت فى شارع الناصرية ، فيلقى التحيات ذات اليمين وذات اليسار ويرفع بصره خلسة إلى النوافذ علّ بها ما « يشبرق » به نظره .. ثم يتمهل برهة أمام « المقلة » . . حيث يحشو جيوبه باللب الجرنه والفول السودانى ، ويتحرك بعد ذلك قاصداً « عم على الشربتلى » .. حيث يتوقف أمام البرطمانات الزجاجية الشفافة . . المليئة بالليمون والخروب والعرقسوس والتمرهندى ، ويتحسس بيده « السطل » النحاسى الذى تندى سطحه المثلج بقطرات الماء ، ويطلب كوباً من الخروب .

ويرحب به « عم على » أيما ترحيب ويمد يده إليه بشوب الخروب ، فيأخذ فى تناوله بتمهل وترو . وعيناه ترقبان نافذة « أم زكيه » الكائنة أمام دكان الشربتلى ، فلا يكاد يلمح ابنتها زكيه .. وقد عصبت رأسها بمنديل تدلت منه « الأوية » الملونة على جبينها ، وأخذت « تطرقع » باللبانة بين شدقيها ، حتى يبدأ عملية البصبصة ، وأرتجف أنا فوق حاجبيه وأهتز وأحس كأن أسفلى زلزال . . ويأخذ حاجباه فى الصعود والهبوط .. وأنا أتمايل كأنى بهلوان على حبل ، أطلب من الله السلامة . . وأخشى بين لحظة وأخرى أن أفقد توازنى

ويختل مقامى . فأهوى على الأرض .

وأخيراً . . وبعد أن أكون قد أنهكت من فرط الاهتزاز وتلعيب الحواجب .. تصل إلينا ضحكة رنانة منطلقة من شفتى « زكيه » مستقرة فى قلب حسن افندى . . فتثبت حواجبه ، ويتصلب جسده ، كأنه « مربوح » ، وتظل عيناه عالقة بالنافذة والكوب مثبت على شفتيه .. حتى تختفى الفتاة من النافذة .

ويتمالك الرجل نفسه ويستعيد قواه . . فيتحرك بعد ذلك متجهاً إلى شارع خيرت .. فإذا صادفه أحد باعة التين الشوكى ، توقف أمامه وأخذ فى انتقاء التينة بعد التينة حتى يزدرد عشر تينات ، ثم يستقر بعدها على مقعده أمام دكان الحلاق .

كان هذا هو برنامج صاحبي اليومى الذى لا يحيد عنه . . وكان فى جلسته عند الأسطى زكى . . لا يفعل شيئاً سوى البصبصة .

وبصبصة حسن افندى تكون بإحدى طريقتين : إما بصبصة فى حالة الثبات . . أو بصبصة فى حالة الحركة .

فى الحالة الأولى . . يجلس حسن افندى على المقعد منتفخ الأوداج . . وقد وضع ساقاً على ساق . . وأخذ

يرقب الغاديات والرائحات . مستعيناً فى مغازلتهن ، بلسانه وحاجبيه .

والرجل لا يستثنى فى مغازلته عجوزاً أو صبية . . فهو مندفع فى بصبصته بلا تمييز ولا روية . . كأن عليه واجباً لابد من تأديته . . وهكذا تندفع التشبيهات من فمه كأنها السيل . . « يابت ياللى زى الجوزيه » . . « يا باشا ياللى زى البغاشه » . . « هز يا وز » . . « أنا أموت فى المهلبيه » . . « نظره ياست يا ام العواجز » . . « إيه ده ياسى محمد . . إحنا سمنا قوى » .

ويستمر حسن افندى فى مغازلته . . حتى تمر به امرأة تدخل فى « مزاجه » وتثير نشوته فينتقل من حالة الثبات إلى حالة الحركة ، ويتحول من المغازلة الشفوية إلى المغازلة العملية . . فيترك مقعده ويهرول وراء المرأة . . ويظل يطاردها حتى بيتها . . وأحس حينذاك بالعرق يتصبب دونى وأرانى قد تزحلقت حتى صرت فى مؤخرة رأسه وأخيراً يعود من حيث أتى .

ورغم كل هذه المغازلات من حسن افندى . . ورغم جريه فى الشوارع وراء النساء ، فقد كنت أعلم أن واحدة فقط هى التى تسيطر على تفكيره ، وتتحكم فى زمام قلبه . .

وهى « زكيه » بنت « أم زكيه » .

° ° °

خرج حسن افندى من باب الدار .. وانتظرت أن يتجه إلى « المقلة » كما يفعل كل يوم .. فيحشو جيوبه باللب والفول ، ولكن لم يفعل .. بل رأيته قد تجاوز المقلة .. واتجه إلى دكان المعلم حسونه الحلوانى ، وأخذ ينقل بصره فى محتويات الدكان .. من بسبوسه ، وكنافه ، وجوزيه ، وعلب ملبن ، وملبس ، وشربات .

وأخيراً طلب من المعلم حسونه أن يزن له رطلا من البسبوسة ، وآخر من الكنافة ، وأن يلفهما له مع علبتين من الملبن ، وخرج الرجل من الدكان حاملا اللفة .. وأنا فى دهشة مما ينوى أن يصنعه بذلك ، وزادت دهشتى عندما رأيته يتجاوز حانوت الشربتلى ، ثم ينتقل إلى الرصيف الآخر ، ويدخل فى بيت أم زكيه .

إذاً فهذا هو الأمر الجلل الذى ينوى فعله .. وهذه الحلوى هدية للفتاة .

ما شاء الله .. أية جرأة تلك التى أصابت الرجل .. وماذا تراه مختلقاً من أسباب للزيارة ؟

وصعد الرجل الدرج ثم توقف أمام باب الشقة ، ونقر

الباب بأدب . فأجابه صوت نسائى : « مين » ؟

وفتح الباب .. فإذا بنا أمام زكيه وجهاً لوجه .

كان أول ما لفت نظرى ونظر صاحبى . . فى زكيه هو مجرى العبير من نهديها فلقد كانت الفتاة ترتدى قميصاً واسع فتحة الصدر بحيث أبدى مابين النهدين فى وضوح وجلاء .

ووقف حسن افندى مبهوتاً مأخوذاً ، وقد ثبت بصره على صدرها ، ومضت لحظة وهو لا ينبس ببنت شفة . . حتى صاحت به الفتاة :

— ده إيه ياختى ده .. ماتتكلم !! عايز إيه !!

وتكلم حسن افندى فأنبأها فى صوت متلجلج أنه يريد الست أم زكيه .

وعادت الفتاة تسأل متخابثة :

— نقول لها مين ؟

— حسن .. حسن افندى المناويشى .. جاركم ومفتش مراجيح القاهرة بوزارة الشؤون الاجتماعية .

وعلا صوت من الداخل يصيح :

— إتفضل يا سى حسن . . أهلا وسهلا . . خليه يخش يابنت فى أودة المسافرين .

وأفسحت البنت الطريق وسارت أمام حسن افندى

obeikandl.com

وقد انتقل بصره من نهديها إلى ردفيها . . وقد أخذا يهتزان فى رجرجة منتظمة داخل القميص المتسع .

وأخذت أطل على الفتاة من فوق رأس الرجل ، وقد أصابتنى أنا الآخر النشوة . . إننى ماتوقعت قط أن أراها بمثل هذا النضج والامتلاء . . إن الرجل والله معذور .

وعلا صوت أم زكية مرة أخرى يصيح :

ــ اعملى قهوه يابنت لسى حسن ، دى خطوه عزيزه .

وخرجت زكيه من الحجرة وحسن افندى محملقاً ببصره مأخوذاً مذهولا . . وأنا حائر فيما ينوى الرجل طلبه من المرأة .

وبعد لحظات أشرقت عليه أم زكيه بأكداس اللحم والشحم التى علت جسدها والكحل الذى أغرق عينيها . . والأساور التى رصت فى معصمها . . ولسانها الذى لا يهدأ فى فيها لحظة واحدة .

وبدأت المرأة حديثها مرحبة بحسن افندى بقولها :

ــ أهلا وسهلا . . أهلا وسهلا . . داحنا زارنا النبى ياسى حسن افندى .

ــ أهلا بك ياست ام زكيه . . محسوبك حسن افندى المناويشى مفتش . . .

ـ عارفاك يا خويا عارفاك . . وهوّا فيه كام حسن افندى فى حتتنا . . إسم الله عليك وعلى مقامك . . دانت نورت البيت .

ـ الله ينور عليكى .

ـ يا مرحباً . . يا مرحباً .

واستمر الطرفان يتبادلان التحيات بلا توقف ، وكنت على حال من القلق ، جعلنى أضيق ذرعاً بهذه التحيات المتتالية كأنها طلقات مدفع ماكينة . . وتمنيت لو يدخل صاحبنا فى الموضوع رأساً ، حتى أعرف أى أمر جلل ، قد دفعه إلى المغامرة بدخول بيت أم زكيه .

ولم يكن هناك شك فى أن إقدام مثل صاحبنا الذى أستقر على رأسه على دخول بيت مثل بيت صاحبتنا التى تستقر أمامى بطياتها وثنياتها . . أمر يعتبر فى الحقيقة مغامرة كبرى .

حقيقة إن حسن افندى رجل بصباص . . وحقيقة أن مظهر الست زكيه لا ينم على كثير وقار أو حشمة ، ولكن ذلك لا يمنع من اعتبار دخوله بيتها مغامرة . . لأن قدرة حسن افندى فى مسائل البصبصة قدرة نظرية ، وأسلحته فى معارك الغزل لا تعدو الحواجب واللسان ، وهجماته فى

ميادين الغرام لاتزيد على العدو فى الطرقات والتوصيل إلى الأبواب .

والست زكيه ليست بالمركب السهل ، ودخول دارها قد يكون هيناً لبصباص عملى « ابن حنت » . . أما السيد حسن افندى ، الخائب إلا من بعيد ، الغريق فى شبر من الماء ، فقد كان دخوله للدار بمثابة إلقاء بنفسه إلى التهلكة .

وأحسست بالعرق يتصبب من أسفلى ، وأخذت أنزلق هابطاً رويداً رويداً على الأدنين ، وازداد الارتباك بصاحبى بعد أن انتهى سيل التحيات المتدفق من فم المرأة ، وران الصمت ، وأخذت المرأة تتطلع ببصرها إلى حسن افندى ، منتظرة أن يفصح عن رغبته . . وكان على صاحبنا أن يقول شيئاً ، ولكنه لم يفعل سوى أن مد يده ودفعنى إلى الوراء ثم إلى الأمام بحركة عصبية ، كأنما يريدنى أن أتحدث عنه .

ومالى أنا وهذا الشأن .. أنا لم أقل له إذهب إلى أم زكيه وما كان لى أى علم بما ينوى أن يفعله .

قل ما شئت ياحسن افندى . . تحدث .

وأخيراً تحسست يده علبة الحلوى التى بجواره .. حيث وجد فيها منقذاً إلى حين ، فدفع بها إلى الست أم زكيه قائلا :

ـ اتفضلى يا ست . . حاجه بسيطه . . على ما قسم . . شوية حلويات .

ـ من يد مانعدمها ، وليه ياخويه التعب ده ؟

ـ تعبك راحه يا ست ام زكيه ، إحنا خدامين .

ـ والنبي أمير وزى السكر ، ولايجيب الحلو إلا الحلو .

واحمر وجه حسن افندى ، حتى أصبح فى مثل لونى ، وبدأ سيل آخر من المديح المتبادل . . ساعد على إنقاذه من ورطة الصمت .

وأخيراً انتهى المديح كما انتهت التحيات . . وعادت المرأة تتطلع ببصرها إلى وجه حسن افندى .

تكلم ياسى حسن الله لايسيئك ، قل ماذا تريد ؟ وأرحنى وأرحها .

وأخيراً ، وبعد جهد مشكور ، أخذت شفتاه تنطبقان وتنفتحان استعداداً للحديث ، ثم بدأت الكلمات تخرج من بين شفتيه مضطربة مترددة ، قال لافض فوه :

ـ والله يا ست زكيه ، أنا أصلى طول عمرى . . من غير مؤاخذة . . .

ثم كف الرجل فجأة عن الحديث ، وأخذ يحملق بعينيه إلى الباب .

معذور .. معه حق . . لقد حملقت أنا الآخر . . فقد بدت زكيه تحمل بين يديها صينية عليها شراب أحمر أغلب ظني أنه شربات ورد .

إن هذه الزيارة لن تنتهي على خير ، هذا الأحمق القابع أسفلي لن يخرج من هنا سليما

لقد أقبلت زكيه بعد أن أبدلت ثوبها . . لا بأكثر احتشاماً ، بل أكثر عرياً .

كان الثوب الجديد أحمر انجليزى فى لون الشربات الذى تحمله ، وكان بلا أكمام ولا صدر ، ولا شيء أبداً . . لقد تدلت ذراعيها بيضاوتين ناصعتين ممتلئتين من فتحة كم متسعة أبدت كل ما حول منبت الذراعين من أعلى الكتف إلى أسفل الإبط .

وتقدمت الفتاة نحونا وكأنها خطر داهم . . وأخذت تقترب من صاحبنا الواجم الشارد الفاغر الفاه ، ثم انحنت مقدمة له كوب الشربات .

وفى انحناءتها المقصودة انحسر صدر ثوبها وهبطت كرتا ثديها مستندتان على صدر الثوب المنحسر وخرج شعاع البصر من عينى حسن افندى متجاوزاً الشربات عابراً فتحة الصدر ، مستقراً على الكرتين البيضاوتين .. المتدليتين فى تثاقل كأنهما كرتا عجين .

وازدرد الرجل ريقه . ومد يداً إلى الكوب ويداً إلى يدفعني بها إلى مؤخرة رأسه ، وانطلقت منه تنهيدة طويلة .

ومالى أنا ، إنه وحده السبب ، ليتحمل نتائج مغامرته ، إنه ليس حمل زكيه ولا أم زكيه .

وعندما تناول الكوب . استدارت متجهة إلى الباب ، وحسب الخطة الموضوعة لم تكد تسير بضع خطوات حتى انحنت لتلتقط شيئاً من الأرض . . لست أدرى ما هو . . على أية حال ، الشيء لم يكن بذى أهمية ، المهم هو الانحناءة نفسها . . فكما انحسر صدر الثوب فكشف الثديين ، انحسر ذيله ، فكشف عن الساقين ، وما أدراكم ما الساقين . . .

أما عن اللون فأبيض مخدوم ، أعنى أبيض بض ممسوحاً كالرخام . . ليس به أثر لمسام ولا شعيرات ، أما عن التركيب أو الكسم ، فامتلاء مسحوب إلى أسفل مع غمازتين فى باطن الركبة ، واستدارة دقيقة فى الكعب ، وقد بدا جزء من باطن الفخذين بادى الاكتناز ، ناصع البياض . . تتخلله شعيرات من عروق دقيقة خضراء متشعبة من غمازتى ثنيتى الركبتين .

يا هوه ! !

كان ذلك هو لسان حال صاحبنا ، وقد وضع شفتيه

على كوب الشربات . وعينيه على كيزان العسل .

واختفت زكيه .. وحسن افندى مازال محملقاً والكوب فى يده لم يذق منه قطرة . . وابتسمت « أم زكية » فى خبث ورفعت أحد حاجبيها . . وقد ملأتها الثقة فى نجاح خطتها الهجومية الرائعة بالئديين والساقين .. وقالت فى لهجة ملحنة:

ــ ما تشرب ياحسن افندى ياخويه . . الشربات ده مش عاجبك والا إيه ؟

وقال حسن افندى كمن أفاق فجأة :

ــ عاجبنى ، عاجبنى أوى . . ياست أم زكيه .

ومرة أخرى ران الصمت وعادت أم زكيه تنتظر . . كما ينتظر القط .. فأراً على وشك الوقوع .

وطال الصمت بصاحبنا وهو غريق فى وجله واضطرابه وأخيراً قالت أم زكيه :

ــ خير ياسى حسن افندى خير .

ــ خير ياست ام زكيه .. أنا أصلى جاى .. علشان . . أصلى كنت بقول لو كان ممكن ....

ــ إيه هوّا بس اللى لو كان ممكن ؟

ــ أتجوز بنتك زكيه .

يا نهارك اسود . . يا حسن افندى ! . . كده مره

واحده . . جواز خبط لزق ! .

ويبدو أن المرأة لم تكن تتوقع قط أن يبلغ انتصارها هذا الحد ، فقد بدت عليها دهشة سرعان ما أخفتها ثم قالت فى لهجتها المنغمة :

ـ يا سلام ياحسن افندى .. غالى والطلب رخيص . . زكيه ، وام زكيه ، وأهل زكيه كلهم فداك .

ولم أدر ما قال حسن افندى بعد ذاك . . فقد كان فى حالة ذهول وارتباك ، ولم أكن أقل منه ذهولا ولا عجباً .

وهكذا اتضح فى النهاية أن صاحبنا الغبى قد أتى ليطلب القرب من أم زكيه .

ودهشت وأصابنى حنق على الرجل ، فقد كنت أعلم أن القرب من أم زكيه ، وزكيه .. شىء غير مأمون العاقبة ، وأن البعد عنهم كما يقول المثل غنيمة .

لا أطيل عليكم . . لقد رحبت المرأة بحسن افندى أيما ترحيب ، ولم تمض بضعة أيام حتى حدث القرب فعلا . . وانتقلت أنا وصاحبى وبقية الكراكيب إلى بيت أم زكيه .

مرت الأيام ، وبدا لى أن حسن افندى لم يعد كما عهدته من «العياقة» والانشراح ، فقد أضحى موضعى الدائم فى رأسه هو المؤخرة . . وهو الموضع الذى كنت أستقر فيه عندما

يصبح فى حالة ضيق وتبرم .

وفى ذات يوم عدنا إلى البيت . . وقذف بى صاحبى فى ضيق ، فاستقر بى الحال على أحد المقاعد ، ودخل هو إلى حجرة النوم . . فاضطجع فى الفراش وعلا شخيره .

ونظرت حولى فأدهشنى أن أجد هناك طربوشاً آخر قد استقر على مقعد آخر ، وتملكنى الأسف ، فقد أدركت أن حسن افندى قد مل صحبتى وابتاع لنفسه طربوشاً جديداً . وأنه ينوى أن يطردنى من خدمته .

ولكن أسفى قد تحول إلى حيرة شديدة عندما أبصرت برجل يخرج من داخل دولاب الملابس . . ويتسلل على أطراف أصابعه .. ويتقدم إلىّ فيضعنى على رأسه ، ويترك طربوشه لحسن افندى .

واستقر بى المقام على الرأس الجديدة . . ومنذ ذلك اليوم وأنا لا أرى حسن افندى أو أسمع عنه . . حتى كان ذات يوم أرسلنى صاحبى الجديد إلى المكوجى ، وجلست مع غيرى من الطرابيش نقطع الوقت بالدردشة . . وقلت لجارى فى معرض القول :

— هذه أول مرة أحضر إلى هنا ، إنى لم أبصر المكوجى قط عند ما كنت على رأس حسن افندى !

ونظر إلى الطربوش فى دهشة وقال متسائلا :

— ماذا تقول ؟ إنت كنت على رأس حسن افندى ؟

— وأى شىء فى ذلك يبعث على الدهشة ؟

— لأنى أنا أيضاً مررت برأس حسن افندى !

وهنا تدخل طربوش ثالث ، فأنبأنا بأنه قد جرب رأس حسن افندى بضعة أيام ، ثم تدخل طربوش رابع وخامس وسادس ، حتى اتضح أنه ليس هناك طربوش فى المحل إلا ومر على رأس حسن افندى .

وقلت لنفسى متسائلا :

« ماذا جرى لصاحبي المسكين « البصباص » لقد طالت صحبتى له دهراً طويلا ؟! ماذا يجعل الطرابيش لا تستقر على رأسه . . وتتبدل عليه الواحد تلو الآخر » .

زكيه الحنش

هذا حديث شبشب . . عليم بما في الخدور ، وما في الصدور . . قد يتشابه حديثه مع ما تحبكه بطون غيره من الشباشب . . وقد يظن أحدها أننا نعنيه بحديثنا . . ويتهم من أصحابه بأنه قد هتك سترها وأذاع ما خفي من أمرها . . ولكننا نؤكد أن شبشبنا هذا من نسج الخيال . . وأنه ليست له أية صلة — من قريب أو بعيد — بشباشيبهم الموقرة ، وعلى ذلك فلسنا مسئولين عما قد يحدث من تشابه أو التباس .

obeikandl.com

وأخيراً خرجت من الظلمات إلى النور ، وتربعت على عرش أطل منه على هذا الحشد العجيب من المخلوقات الآدمية تمر بى رائحة غادية .

لقد تم خلقى منذ بضعة أيام . . وأصبحت مخلوقاً أنيقاً فاخراً . . بهذه البشرة الناعمة اللامعة من الستانيه الأزرق ، وتلك « الفيونكة » التى تحتل مكانها فى صدرى ، وهذا البوز الرفيع الدقيق ، والباطن اللين الطرى ، والكعب العالى المرتفع الذى يرفع هامتى ويزيد قدرى ويملؤنى غروراً وكبرياء على غيرى من شباشب العباد التى لا كعب لها ولا بوز ولا فيونكة .

وجلست فى ركن من « الفاترينة » الزجاجية الأنيقة . . وسط خليط من الأحذية والشباشب ، التى اختارها صاحب المتجر لتعرض فى الفاترينة . . وأخذت أرقب المارة والمتسكعين فى شارع فؤاد الذين لا عمل لهم إلا التطلع إلى واجهات الحوانيت والتأمل فى معروضاتها .

وظلت الوجوه تتواتر علىّ . . ما بين محملقة وعابرة . . ومتمنية وزاهدة . . ويائسة وحالمة . . حتى أطل علىّ وجهها أخيراً . . وقد بدت فيه نظرة إعجاب . . ولمحتها تدفع صاحبها

بمرفقها فى جانبه لتلفت نظره الذى شغل بتتبع سائقين تعبران الطريق .

والتفت إليها متسائلا عما تريد فأشارت إلىّ قائلة :

ـ شبشب لطيف .

وأحسست بالفخر والغرور . . فالشباشب كالغوانى . . يغرها الثناء .

وقلت لنفسى مجيباً تحيتها : « ده من أصلك » .

وهز الرجل رأسه موافقاً على أنى « لطيف » . . وهمّ بمعاودة السير . . ولكنها نظرت إليه نظرة تأنيب . . فهى لم تقصد بتقريظى أن يجاوبها بتقريظ مثله . . بل رمت إلى أكثر من ذلك .

وتوكل صاحبها على الله . . ودخل وإياها الدكان . . وبعد لحظة امتدت إلىّ يد من الداخل ، ثم أدخلت فى قدمها لحظة على سبيل التجربة وسمعت التاجر يقول « مبروك » . . وبعد هنيهة ضمتنى ظلمة معتمة داخل صندوق من الورق تمددت فيه .

ولم أبصر شيئاً مما حدث بعد ذلك . . حتى أحسست بنفسى أخرج من الصندوق . . وأترك ظلمته الدامسة .

وتلفت حولى فإذا بى فى غرفة نوم أنيقة فاخرة الرياش

توسطها فراش كسى بالستان الأزرق وأبصرت النوافذ مغطاة بستائر زرقاء ، وبدا لى كل مافى الغرفة قد غلبت عليه الزرقة فأدركت سر اختيار صاحبتى لى وأن لونى هو الذى أغراها بى . . إنها لا شك امرأة فنانة .

وكانت تجلس وحيدة فى الغرفة على مقعد صغير منخفض أمام التسريحة ، وقد نضدت عنها ثيابها إلا من قميص داخلى أزرق شفاف . . وأمسكت بى تتأملنى برهة ثم دستنى فى قدمها وشغلت عنى بعد ذلك بتأمل وجهها فى المرآة .

وضايقتنى رائحة القدم لأول مرة إذ لم تكن تتناسب كثيراً مع تلك العطور التى تفوح من الزجاجات التى رصت على التسريحة . . ولاحتى مع رائحة النفتالين التى كانت تفوح من الصندوق الذى كنت أرقد فيه .

وألقيت على القدم التى دستنى تحية مقتضبة . . إذ لم أحس لصحبتها كثير فرحة . . لقد كنت أتوقع أن أجدها خيراً مما هى . . لقد تصورتها طرية ناعمة منتظمة كقالب الزبدة . . ولكنى فوجئت بأصابعها المعقلة وبالكالو ينخس جانبى كالسكين . . وبباطنها الجاف وعروقها النافرة .

قلت لها متأذياً :

— سعيده .

— سعيده مبارك .

— إنى أشم رائحة كريهة .

— ستتعودها بمضى المدة .

— ولكن هذه العطور المرصوصة ما فائدتها ؟ .

— لا فائدة منها .. إنها لا تجدى معى نفعاً .. الحمد لله .

— على ماذا ؟ .

— على ما صرنا إليه .

— لست أرى بك ما يستحق الحمد ، اللهم إلا الحمد على المكروه .

— وهذا الطلاء الأحمر الذى يزين أظافرى . . ما رأيك فيه ؟

— لا بأس به . . ولكن الأظافر نفسها .

— مالها ؟ .

— مش ولا بد .

— ماذا كنت تقول إذاً لو رأيتها فيما مضى . . وقد كستها الحنة ولوثها الطين والأتربة ؟

— حنة وطين وأتربة فى أظافرك أنت ! ومن أين لك هذا ؟ .

— وأكثر من هذا .. الحمد لله على المانيكير والبديكير الحمد لله على وجودك .

— وجودى أنا ؟

— أجل . . بعد طول الحفاء . . وبعد طول العدو على الأسفلت المحرق فى هجير بؤونة .. والوقوف على البلاط الرطب وسط مياه الغسيل فى الرطوبة .. رحم الله القبقاب .. لقد كان أفخر ما ارتديت وقتذاك . . كنت أطرقع به على سبيل التفاخر وانتزاع الإعجاب من خدم الحى وبوّابيه . . أبعد كل هذا لا تريدنى أن أحمد الله على وجودك أنت وأمثالك من علية الشباشب الأنيقة والأحذية الفاخرة والجوارب النايلون ؟ ! .

— هذا أمر عجيب . . أنت قد عدوت على الأسفلت عارية حافية ؟ . . ونقعت فى مياه الغسيل . . قولى شيئاً غير هذا . . إنك لا شك تسخرين منى .

وهنا سمعت صوتاً أجش ينادى من الخارج :

— زيزى هانم .

وكانت زيزى هانم مازالت جالسة أمام التسريحة تفحص وجهها فى المرآة وتصلح الرتوش فأجابت بصوت ناعم ممدود :

— حاضر ياشيرى .

وعدت أوجه القول للقدم التى أخذت تحرك أصابعها فى باطنى :

— أجل .. أنا لا أستطيع أن أصدق شيئاً من قولك هذا . . هل يعقل أن زيزى هانم التى لا يحتمل مزاجها إلا اللون الأزرق تجرى حافية على الأسفلت . . وتنتزع إعجاب الناس بطرقعة القبقاب ؟ . . هذا منتهى التشنيع .

— أى تشنيع ؟ . . أنت شبشب غشيم مستجد . . أنا لم أقل غير الحقيقة .

— ولكن كيف يحدث هذا ؟ كيف ينقلب الحفاء . . إلى نايلون؟

— ليس هذا وقته . . سأخبرك بعدين .

وكانت زيزى هانم قد أتمت إصلاح الرتوش ونهضت فارتدت روباً من الحرير الأزرق وغادرت الحجرة . . وسارت تطرق الأرض طرقات منتظمة ذكرتنى بطرقعة القبقاب التى قالت القدم إنها كانت تنتزع به إعجاب خدم الحى .

وتوقفت أمام باب أطلت منه قائلة :

— اتفضل يا شيرى .

ونظرت إلى « شيرى » فوجدته قد حجب عنى كل شىء عداه . . أو بوجه أدق . . عدا بطنه المنتفخة التى تدلى فوقها الصديرى ذو الكتينة الذهب .

وجلس الإثنان على المائدة . . وحجب عنى المفرش

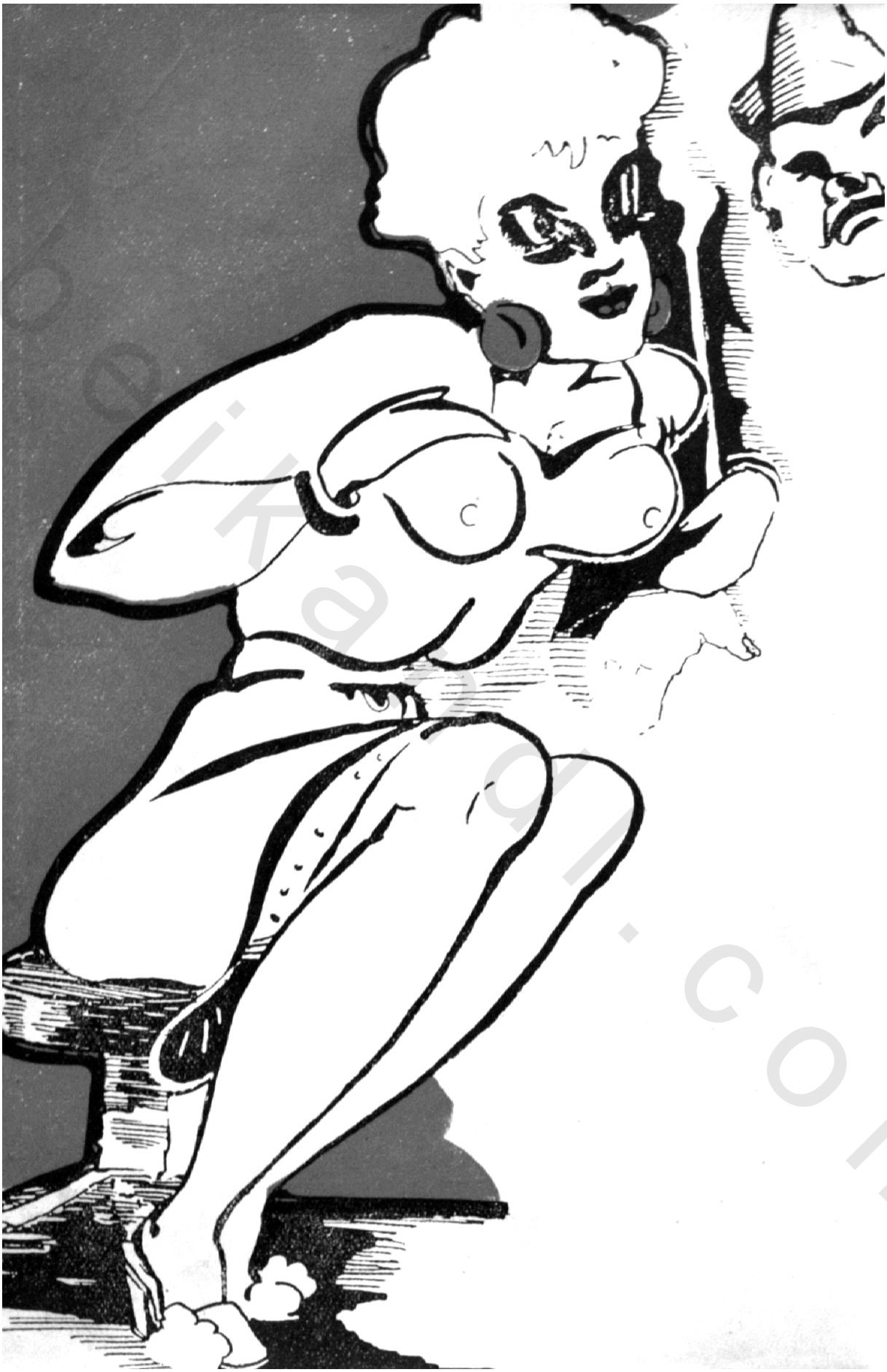

obeikandl.com

الذى تدلى من فوق المنضدة كل شىء عدا ساقيها وساقيه . . ووجدت الفرصة سانحة لأن أعاود حديثى مع القدم علىّ أستبين منها بعض ماخفى علىّ .

قلت لها :

ــ خبرّينى كيف كانت زيزى هانم تعدو حافية على الأسفلت ؟

ــ لم تكن وقتذاك قدأضحت زيزى هانم .. فقد كانت زكية الحنش .

ــ زكيه إيه ؟ .

ــ الحنش . . بنت المعلم مىء مىء بياع الكسبه .

ــ ما هذا الذى تقولينه ؟ . حنش . . ومىء مىء . . وكسبه ! ! .

ــ طبعاً . . أنت شبشب ذوات . . لا تعرف الكسبه ولم تسمع عن مىء مىء الحنش . . الله يححمه . . لقد ذقت منه الأمرين . . طالما اكتويت بخيزرانته . . عند ماكانت زكيه تهرب من البيت الذى تخدم فيه . . أو كانت تتصرف فى بعضة قروش من أجرها . . ألا تحس بذلك البروز فى عرقوبى ؟ . . إنه أثر التواء حدث لى عندما قفزت زكيه من

النافذة بعد أن كاد أبوها يقتلها من الضرب ذات مرة . .
أفهمت لِمَ أحمد الله ؟ .

ـ مفهوم . . ولكن . . . .

ـ ولكن ماذا ؟ .

ـ كيف حدث الانقلاب ؟ كيف أضحت زكية الحنش زيزى هانم ؟ .

وهنا أحسست بقدم الرجل «شيرى» تقترب منى متسللة ثم وجدتها تضغط علىّ . . وأحسست أن القدم فى باطنى تتلوّى من الألم . . وهمست بها فى خوف :

ـ ماذا يريد هذا الحيوان ؟ .

ـ غزل . . هو دائماً يبدأ غزله هكذا ! .

وانسحبت القدم من تحت قدمه ولكنه عاد يقترب بساقه . . أو ساق الفيل كلها .

ووصل إلىّ صوته من فوق المنضدة يقول وفمه محشو بالطعام :

ـ عبد الحميد بك قال لى إن الفيلم مدهش .

ـ متى رآه ؟ .

ـ رآه فى العرض الخاص الذى عرضناه له أمس . .

لقد انتظرناك طويلا ولكنك لم تحضرى . . لقد قال إنك بلغت القمة .

ـ حقيق !

وسمعت طرقعة قبلة . . اغلب الظن أنها منها هى لأن فمه كان فى حالة من الامتلاء لا تسمح له بالتقبيل .

وعدت أسأل القدم :

ـ لم تخبرينى بعد . . كيف حدث الانقلاب العجيب ؟. ماذا حدث لزكية الحنش بنت المعلم مأمأ ؟

ـ مىء مىء .

ـ مىء مىء . . مأمأ . . كله يتساوى . . نحن لم نغلط فى البخارى . . قولى ماذا حدث ؟

ـ هذا حديث طويل .

ـ دعينا نقطع به الوقت . . دعينا نتسلى .

وأحسست بها تنسحب منى قليلا وأبصرت بأصابعها تتلوّى فسألتها :

ـ مابالك تتباعدين وما بال أصابعك تتلوى هكذا ؟

ـ لقد أطبقت علىّ . . مالك تضغط على أصابعى هكذا . . حتى جعلتنى أضيق بك .

ـ معك حق . . بعد طول الحرية والانطلاق على

الأسفلت .. لا بد أن تضيق بى .

ـ إقصر لسانك .. ولا تكن قليل الأدب .

ـ أقلت شيئاً من عندى ؟ .. ألم تعترفى أنت بدلك منذ لحظة ؟

ـ أجل . ولكن هذا شىء مضى .. يجب أن تتناساه .. تماماً وتنكره تمام الإنكار .. يجب ألا تذكر إلا أنى لم أتعود السير إلا على السجاجيد العجمى فى بيت بابا .

ـ مىء مىء الحنش ؟

ـ لا .. لا .. بابا .. محمد باشا الحنكاش .. صاحب عقارات وأطيان .. وسليل أكبر عائلات الدقهلية .. وابن ..

ـ مفهوم .. مفهوم .. ابن زكى باشا الحنكاش .. الذى ينتمى إلى الدوحة الكريمة المفضلة .

ـ تستطيع أن تقول هذا .. ويجب أن تذكر أيضاً أن هذا النتوء فى العرقوب نتيجة للوقوع من على الحصان .. فى إحدى النزهات الخلوية فى العزبة .

ـ والكاللو .. ؟

ـ من ضيق الأحذية البالى .

ـ والعروق .. والقشف .. والزرقان ؟

ـ لا تذكر شيئاً من هذا .

ـ وانزاحه ؟

ـ تناساها .

ـ لا . . لا . . كله إلا هذا . . أرجوك أن تبقى بعيدة عنى . . أجل . . هكذا . . دعينى أشم نفسى . . إن البعد عنك غنيمة .

ـ غنيمة ياعرة الشباشب . . خذ .

ثم عادت تندس فىّ بعنف وقلت مهدئاً :

ـ لا تريدين مزاحاً ؟

ـ أكنت تمزح ؟ .

ـ بالطبع . . مادام قد حكم علىّ بعشرتك المؤبدة . . أأستطيع أن أضيع العمر معك فى خصام ؟ . قولى ماذا حدث لصاحبتك زكيه الحنش ؟

ـ قلت لك إنسى هذا الاسم .

ـ زكية الحنكاش ؟

ـ زيزى هانم كفايه .

ـ ماذا حدث لزيزى هانم ؟

ـ هربت من بيت أبيها .

ـ بيت أبيها ؟ ! .

ـ أبيها ؟ ! أيها الغبى . . من قال لك إن لأبيها بيتاً .

— لم يكن له بيت !!.. الخنكاش باشا لم يكن له بيت ؟! أين إذاً كان يضع السجاجيد العجمى . . أكان يفرشها على الرصيف ؟

— أيها الأبله . . لم يكن أصبح بعد الخنكاش باشا . . كان لم يزل مىء مىء الخنش .

— ليكن مىء مىء الخنش . . أين كان يبيت ؟ .

— فى الاسطبل .

— اسطبل ؟ ! ! .

— أجل فى الاسطبل . . غريبة هذه ؟

— أبداً . . أبداً .

— إذاً علام الدهشة ؟

— لا شىء . . لقد كنت أظن أنه من بنى آدم . . لم يخطر لى على بال أنها ابنة حمار .

— حمار ؟ . . من قال لك إن أباها حمار ؟

— ألم تقولى أنت الآن .

— أنا قلت هذا ؟ .

— ألم تقولى أنه ينام فى الاسطبل .

— وهل كل من ينام فى الاسطبل حمار . . يابن الحمار ؟

— أنا ابن حمار ؟ .

ـ لا . . ابن عجل . . ابن معزه . . أستكون شيئاً أكثر من هذا .

ـ عيب اخشى إن أبى ميت . . ولا أحب أن يذكر أحد سيرته بالسوء .

ـ ميت ؟!!.. أتريد أن يكون أبوك حياً . . لقد تعودت أن أعامل الشباشب هكذا . . أتعجبك المعاملة . . إذا كان كل شبشب سيخبرنى أن أباه ميت فكيف أسبه وكيف ألعن أباه ؟

ـ على أية حال دعينا من هذا . . قولى لى كيف كان ينام المعلم مىء مىء فى الاسطبل وهو ليس حماراً ولا بغلا ولا حصاناً . . ماذا كان يدفعه إلى هذا ؟

ـ عمله .

ـ أكان خادم اسطبل ؟

ـ قطع لسانك . . خادم اسطبل ؟! المعلم مىء مىء الحنش على سن ورمح . . خادم اسطبل ؟

ـ ماذا كان عمله إذاً . . قولى وأريحينى ؟

ـ مدير شركة .

ـ شركة ؟

ـ أجل .. شركة نقل؟ كان لديه حماران وعربتان كارو

ـ مدير شركة كارو ؟! . يعنى عربجى كارو ! والله يرحمه كان يملك وسائل نقل أخرى .. يعنى ترمايات .. سكك حديد؟

ـ الله يرحمه ؟ . . قال الله ولا فالك . . إنه مازال على قيد الحياة .

ـ كمان ؟ ! وما زال يقوم بإدارة شركاته ؟

ـ شخصياً بنفسه . . يسير وراء الحمار من مصر القديمة إلى مصر الجديدة .

ـ وماذا يقول عنه الناس ؟

ـ ومن أدراهم أنه أبوها !

ـ ألا يزورها ؟

ـ أبداً .

ـ ألا تزوره ؟

ـ أبداً . . أبداً إنها تسكته عنها ببضعة جنيهات من آن لآخر كلما هددها بإعلان أبوته .

ـ شىء جميل . . إعلان الأبوة قد أضحى جريمة فى حق الأبناء !

ـ فى مثل هذه الحالة . . نعم .

ـ لنعد إلى حديثنا .. ماذا كنت تقولين عنها ؟

ـ كنت أقول إنها هربت من البيت .

ـ بيت من إذن ؟

ـ بيت أسيادها التى كانت تعمل عندهم . . لقد هربت منه فى إحدى الليالى ، وصممت ألا تعود إليه .

ـ وماذا فعلت إذن ؟

ـ هامت على وجهها . واشتغلت ببضعة أعمال مختلفة كجمع الأعقاب ، والشحاذة . . ثم انتهى بها الأمر أخيراً إلى الاشتغال بالأعمال الحرة .

ـ أجل . . اشتغلت حرة ؟

ـ حرة . . ماذا تعنين ؟

ـ أعنى حرة فى جسدها ، تفعل به ما تشاء . . وكان جسدها قد أضحى فى ذلك الوقت صالحاً للبيع ، والإيجار ، وعرضته فى السوق . . فدرّ عليها شيئاً من الربح .

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ استمرت فى عرضه حتى حلت الحرب . . فارتفع سعره ضمن بقية البضائع التى ارتفع سعرها . . واستطاعت بذلك أن تضع قدميها على أول درجات الكادر .

ـ كادر ؟ !

ـ أجل . . كادر الأرتستات .

ـ ألهن كادر ؟

ـ بالطبع . . كادر ذو درجات وعلاوات .

ـ لست أفهم ! . لم أسمع عن هذا الكادر من قبل !

ـ يبدأ الكادر بخادمة . وهى تقابل عامل خارج الهيئة .

ـ وبعد ؟

ـ متشردة . . تقابل درجه ثامنه مخفضه .

ـ وبعد ؟

ـ تتدرج . . إلى فتاة شارع . . ومن فتاة شارع إلى أرتست حرب .

ـ ومن أرتست حرب ؟

ـ إلى أرتست صالة وهى تقابل تقريباً الدرجة الرابعة .

ـ وبعد ؟

ـ يحتاج الأمر لشىء من الكفاءة .

ـ كفاءة ؟

ـ أجل . . فبدلا من أن يكون عملها مجرد الجلوس مع الزبائن والفتح وتأدية الواجب . . يصبح عملها راقصة أو مونولوجست . . وهو أمر يحتاج إلى موهبة فى تلعيب الوسط وهز الأرداف . . أو فى الصراخ بصوت مقبول .

ـ ما شاء الله . . وعند ما تصبح راقصة ؟

ـ يحتاج الأمر بعد ذلك إلى واسطة . . أجل لابد

من الواسطة لكى تنتقل إلى الدرجة التى تليها . . فالموهبة وحدها لا تكفى .

— وما هى هذه الدرجه التى تليها ؟

— تقابل مدير عام . . وقد يصادفها الحظ وتضحى فى درجة أرفع من ذلك .

— لست أفهم .

— ترتقى إلى درجة نجمة سينمائية . . حرف ج ثم ب ثم ا .

— أهذا يحتاج إلى واسطة ؟

— أجل . . وهـذا هو ما حدث لصاحبتنا . . لقد صادفت الواسطة .

— ومن كان واسطتها ؟

— هذا الحلوف الكبير الجالس أمامك . . لقد كان الواسطة التى رفعتها من راقصة إلى نجمة .

— كيف ! أهو من كبار المخرجين ؟

— لا .

— من كبار الممثلين ؟

— لا .

— من كبار أصحاب الشركات السينمائية ؟

obeikandl.com

ـ لا . . لا . . لا شيء من هذا مطلقاً .

ـ ماذا يكون إذن ؟

ـ تاجر خرده .

ـ تاجر خرده ؟! ألم أقل لك إنك أكبر « مشنعاتيه » ؟ كيف يستطيع تاجر خرده أن يرفعها من راقصة إلى نجمة ؟

ـ رآها ترقص ذات مرة فى كباريه .

ـ ثم ؟

ـ أعجبته . . دخلت مزاجه . . فتح لها زجاجة بيرة .

ـ وبعدين ؟

ـ زجاجة شمبانيا .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ فتح لها هذا البيت ، ثم فتح لها شركة سينمائية وعمل لها فيلماً لتكون بطلته . مسألة طبيعية جداً لا تعدو سلسلة من الفتوحات . . أما زلت ترى فى الأمر غرابة ؟

ـ كلا .

وأخيراً نهضت زيزى هانم و « شيرى بك » خرده إذ لا أعرف له اسما غير هذا . . فالهانم لا تدعوه إلا بـ « شيرى » ، والقدم لم تذكر لى عنه إلا أنه تاجر خرده .

وبعد فترة راحة فى حجرة الصالون دخلا معاً إلى غرفة النوم .

ولم أبصر شيئاً بعد ذلك ، فقد دفعت بى القدم إلى أسفل السرير .

* * *

مرت الأيام والحياة تسير على وتيرة واحدة حتى بدأ الفيلم يعرض .

وفى ذات ليلة حضر خرده بك وقد بدت على وجهه أبلغ علامات اليأس . . وعلمت مما دار بينه وبين زيزى هانم أن الفيلم سقط سقوطاً شنيعاً وأنه قد خسر الجلد والسقط .

وفى الليلة التالية حضر إلى الدار شيرى جديد ولنسمه دوباره بك ، فقد فهمت من حديثه أنه يملك أكبر مصانع الدوبارة والخيش ، وفهمت كذلك أنه ينوى أن يفتح لها هو الآخر شركة سينمائية ويخرج لها فيلماً .

دخل الشيرى الجديد حجرة النوم . . كما دخل صاحب له من قبل ، واتخذت أنا مجلسى المعتاد تحت السرير .

وفجأة سمعت طرقات شديدة على الباب ونهضت زيزى فى فزع لترى من الطارق .

كان الطارق هو الشيرى القديم . . خرده بك .

سألها من الذى عندها . . فأجابته : « مش شغلك » . وصرخ فيها فصرخت فيه . . لعن أباها فلعنت سنسفيل

أجداد أبيه . . صفعها فصفعته . ثم دارت المعركة . حامية الوطيس . . مستعرة الأوار .

ولم تخفنى المعركة فى أول الأمر . . بل لقد وجدت فيها شيئاً يبعث على التسلية . . ما دمت أقف فيها موقف المتفرج . . المحايد . . أو غير المحارب .

ولكنى فجأة وبدون سابق إنذار وجدتنى أنتقل من القدم إلى اليد .. وإذا بى أستعمل استعمالا لم يخطر لى قط على بال .. فقد أصبحت سلاحاً فتاكا للقتال .. ووجدت نفسى أخوض غمار المعركة فأهوى على أصداغ صاحبنا بالكعب .

ولم أكن أظن فى نفسى تلك القدرة على القتال . . فقد كنت السبب فى تحول دفة المعركة ، وتقهقر الخصم وانطلاقه لائذاً بالفرار .

وعادت زيزى هانم بعد أن أغلقت الباب بشدة ودخلت غرفة النوم .. وأبصرت دوباره بك قد تكوّم واختبأ فى ركن الغرفة ، ولكنه لم يكد يراها حتى ظهر مبرزاً شجاعته ونظرت إليه وإلى أصداغه وإلى قفاه . . وأحسست برغبة جارفة فى القتال .. فقد فتح منظرهما شهيتى .. ولكن زيزى هانم دفعت بى تحت السريرى .. وهمست للقدم قبل أن أفارقها : قولى لدوباره بك إن اللقاء بيننا آت لا ريب فيه .

عبد البر افندى

لم يكن سخط عبد البر افندى ناتجاً عن تعلقه بوظيفته الحكومية ، فقد كان هو الآخر متبرماً بها كارهاً لها . بل لأنه لا يرى فى وظيفة الشركة خيراً من وظيفته الحكومية . . وأكثر من هذا : كان سخطه لأنه يرى نفسه مخلوقاً لا ارادة له ، وأنه يحرك هنا وهناك كأنه احدى قطع الشطرنج .

obeikandl.com

لو تجسمت الخيبة فصارت رجلا لما كان سوى « محمود افندى عبد البر » . . فقد كان مخلوقاً غير مستقل ، مسلوب الإرادة فاقد الحرية ، مقيداً إلى إنسان آخر . . يحركه كما يريد ، وهو صاغر راض . . لا يريد التخلص لأنه لا يعرف كيف يعيش إذا ترك لنفسه .

وكان هذا المخلوق الذى شد إليه محمود افندى هى أخته « بهية » .. وهى مفتشة فى وزارة المعارف ، وقد تولت أمره منذ الصغر بعد أن ماتت أمهما ، ولم يكن الفارق بينهما فى السن كبيراً إلى الحد الذى يجعلها تسيطر عليه وتهيمن على كل أموره ، ولكن الخيبة التى رزىء بها جعلته يبدو كطفل فى حاجة إلى من يدبر أمره . حتى بعد أن أضحى رجلا صاحب عمل وصاحب وظيفة . . لا يكاد يتصرف فى أتفه أموره ، ولولا بقية من حياء لانتهى الأمر ببهية هانم لأن تذهب به كل صباح إلى عمله وتعود به فى الظهيرة إلى بيته ، وماذا يمنعها من ذلك ؟ ! وهى التى تطعمه ، وهى التى تكسيه ، وهى التى تذهب به إلى هذه الزيارة أو تلك . . أو هذا الموعد أو ذاك .

ولقد أصابته نوبة من نوبات التذمر والسخط على حالته

هذه وهو يغادر الدار بمصر الجديدة قاصداً إلى المترو ليحمله إلى شارع فؤاد فقد طلبت منه أخته أن يسبقها إلى جروبى حيث دعت « على بك رحمى » مدير إحدى شركات الغزل الكبرى (الذى تعرّفت عليه أخيراً فى إحدى الحفلات المدرسية) أملا منها فى أن يجد له وظيفة فى الشركة خيراً من وظيفته الحكومية التافهة .

ولم يكن سخط عبدالبر افندى ناتجاً عن تعلقه بوظيفته الحكومية فقد كان هو الآخر متبرماً بها كارهاً لها . . . بل لأنه لايرى فى وظيفة الشركة خيراً من وظيفته الحكومية . وأكثر من هذا . . كان سخطه لأنه يرى نفسه مخلوقاً لاإرادة له ، وأنه يحرك هنا وهناك كأنه إحدى قطع الشطرنج ، وهو أجبن من أن يثور على حالته أو يعلن رغباته . . لقد كانت قصارى أمانيه حقاً أن يترك وظيفته الحكومية ليفتح حانوتاً لبيع طوابع البريد القديمة ، وهو يعرف حانوتاً فى شارع فؤاد كان صاحبه يرغب فى بيعه . . أى مستقبل ينتظره لو انتهز الفرصة وأقبل على شراء الحانوت ؟ ولكن هل يجسر على أن يقول ذلك لاخته ، وهى التى تعتبره مخبولا لمجرد غوايته جمع الطوابع ؟

وركب صاحبنا المترو وقد شرد ذهنه ، وبعد لحظة

خيّل إليه أن هناك من يحملق فيه بنظراته ، والتفت فجأة فوجد عينين ترمقانه فى استطلاع ودهشة كأنه حيوان غريب ، ولم يكن صاحب العينين المحملقتين سوى طفل قد تمدد فى حجر أمه .

وأحس محمود افندى بشىء من الحياء . . فقد أخجله أن يكون منظره غريباً أو مضحكاً بحيث يسترعى نظر الطفل دون سائر خلق الله الراكبين فى المترو ، وضحك الطفل فزاد خجل محمود افندى ، ولكنه حاول إخفاءه بأن ضحك هو الآخر فى وجه الطفل . . ليوهم من حوله بأنه هو البادىء بإضحاك الطفل ، وأخذ يشير إليه بأصبعه .

ولم تمض لحظة حتى توثقت عرى الصداقة بين الطرفين . محمود افندى طرف أول ، والطفل طرف ثان ، وقد شجع محمود افندى على هذه الصداقة مالحه بطرف عينيه من ملاحة الطرف الثالث . . وهى أم الطفل ، وأخيراً وقف المترو فى محطته الأخيرة بشارع عماد الدين ، وأخذت الحسناء تحكم لف طفلها وحملته على ذراعها ثم مدت اليد الأخرى لتحمل الحقيبة القماش التى وضعت بها ملابس الطفل ، وبدا لمحمود افندى أنه يجب أن يتقدم لمساعدتها فيحمل الحقيبة عنها . . فأجابته بابتسامة عذبة وتمتمت ببضع كلمات شكر .

ووقف الرجل وسط الازدحام وقد حمل الحقيبة المنتفخة وأمامه المرأة وقد أخذت تتلفت حولها فى حيرة . وتنحنح عبد البر افندى وتساءل فى تردد :

ـ أأستطيع أن أوصلك إلى أى مكان ؟

ـ أشكرك . . إنى أبحث عن زوجى فقد أنبأنى أنه سينتظرنى عند محطة المترو لكى يرافقنى إلى الطبيب .

ولم يدر عبد البر بم يجيب . . إن الموقف يستدعى أن يقول شيئاً على سبيل « جبر الخاطر » . . فالسيدة ذاهبة إلى الدكتور فلابد أن تكون مريضة .

ماذا يقول الناس للمريض ؟ . . لا بأس عليك ؟ ! ! الله يشفيك ؟ ربنا ياخد بيدك ؟ تقوم بالسلامة ؟ ! !

لا . . لا . . هذه كلها أقوال تبدو ركيكة مضحكة . . إن خير مايفعل هو أن يهز رأسه بأسف ، وفى هذا الصمت الآسف خير معبر لتمنياته الطيبة للسيدة .

وكانت السيدة مازالت مستمرة فى التلفت فى حيرة ، وأخيراً سألته فى لهجة نافدة الصبر :

ـ كم الساعة معك من فضلك ؟

وكانت الساعة فى جيب البنطلون الصغير . . ساعة جيب كبيرة ورثها عن أبيه ، ولما كان يحمل الحقيبة بيده

ODGA
ADSE

obeikandl.com

اليمنى ، وإخراج الساعة من جيبه لابد أن يحتاج إلى يده اليمنى . . فقد اضطر إلى أن ينقل حمله أولا إلى اليد اليسرى ثم يدفع أصابعه فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء . ويحه من غبي أحمق . . لقد نسى الساعة كعادته !

ماذا يقول للسيدة ؟ . ستظنه بلا ساعة . . مع أنه يملك ساعة محترمة . . مشرفة . ولم يجد بداً من محاولة البحث فى جيوبه الأخرى حتى تدرك السيدة أن معه ساعة ولكنه لايجدها ، وأخيراً . . وبعد أن نقل الحمل بضع مرات من يده اليمنى إلى اليسرى ومن اليسرى إلى اليمنى . . صاح فى أسف :

ـ الظاهر أنى قد نسيت الساعة .. خسارة .. إنها ساعة فاخرة متينة لاتقدم ثانية ولاتؤخر ثانية .

ـ على أية حال كان يجب أن يكون موجوداً الآن . لست أدرى ماالذى أخره ؟

ـ الغائب عذره معه . . . لابد أن يكون قادماً فى الطريق .

ـ يجب أن أحدثه فى التليفون . . فربما مازال فى المكتب . . إنه دائماً ينسى نفسه .

وأخذت السيدة تدير بصرها فيما حولها . . وتنقلت

عينيها بين الحوانيت على الرصيف الآخر وبين المارة المتزاحمين فى الطريق والعربات المتلاحقة ، وأخيراً استقر بصرها على الطفل ثم انتقل منه إلى عبد البر افندى .

كان واضحاً أنها فى حيرة من أمرها كيف تعبر الطريق المزدحم وتخوض وسط العربات بالطفل فى يدها ، ثم كيف تستطيع بعد ذلك أن تطلب النمرة وتتحدث فى التليفون .

وهنا تحركت النخوة والشهامة فى نفس عبد البر .

يجب ألا يقف هكذا متسمراً فى مكانه « كاللوح » . . يجب أن يعرض المساعدة ، وينقذ السيدة من حيرتها . . ولم يطل به التفكير حتى قال فى كرم وأريحية :

— هات « المحروس » وتفضلى انت للحديث فى التليفون وسأنتظرك هنا . . إنك لاتستطيعين أن تعبرى الشارع وأن تتحدثى فى التليفون وهو معك .

ونظرت إليه السيدة نظرة فاحصة . . لقد كان من المتعذر حقاً أن تتحدث فى التليفون والطفل معها ، ولكن هل يبرر ذلك أن تترك الطفل مع رجل لاتعرفه ؟

ولكنه يبدو رجل طيب مأمون . . لاتبدو عليه مخايل شر أو سيما احتيال . . على النقيض إنه أقرب إلى البلاهة والعبط ، وليس هناك من بأس على الطفل إذا ماتركته معه .

وأخيراً استقر رأيها ومدت يديها إليه بالطفل .

وفوجىء عبدالبر بالطفل فى يديه .

لقد عرض على السيدة من باب الكرم أن يحمل عنها الطفل ، ولكنه كان مجرد عرض لم يخطر له ببال وهو يعرضه أنه يمكن أن يصبح موضع التنفيذ . . لقد كان عرضه أشبه بعرض عابر سبيل يمر بحمال ينوء ظهره بحمل ثقيل فيقول له من باب المجاملة « عنك » فإذا بالحمال يقذف إليه بالحمل .

لقد كان خيراً لعبدالبر أن يُقْذَف بأى حمل ثقيل من أن يتولى حمل هذه المخلوق اللين الهش .

كانت المرة الأولى التى يحمل فيها طفلا ، وحمل الطفل فى نظره ليس بالأمر السهل . . إنه يحتاج إلى صنعة وإلى مهارة ومران . . هذا العظم الطرى ، لابد أن يحمل بطريقة فنية والا تهشم وتفتت . . إنه يحتاج إلى مثل طريقة الحجاج ابن يوسف الثقفى « شده فى غير عنف ولين فى غير ضعف » .

لعنة الله عليه . . أى حماقة دفعت به إلى هذا المأزق الحرج ؟ ! إنه يعرف أنهم يحملون الأطفال برقة فوق الذراعين أو فوق الكتف ، ولقد كان يمكن أن يقدم على مثل هذه المحاولة لو أن كلتا يديه خاليتين ، ولكن ما حيلته

وإحداهما مشغولة بالحقيبة .. إنه لم يعد أمامه سوى وسيلة واحدة ، هى أن يحمل الطفل كما يحمل الحقيبة تحت إبطه .

وهكذا طوى الطفل تحت إبطه كما يطوى حزمة فجل ، وأدار الطفل عينيه ونظر إليه فى دهش وتساؤل كأنما يقول له :

ـ ماهذا أيها الغبى .. إنى لم أتعوّد أن أحمل هكذا .. لاتكن حماراً ، ودعنى أعتدل .

ولم يملك عبد البر إلا أن يهز رأسه ويتمتم معتذراً للطفل :

ـ لا بأس عليك .. احتمل ، أنت ترى أنى لاأستطيع حملك خيراً من هذا .. إن يدى مشغولة بحقيبة ملابسك ، ولا أستطيع تهشيكك وتدليلك .. اصبر .. إن أمك آتية بعد برهة قصيرة .. إنها تحدث أباك فى التليفون .. فكن رجلا واحتمل .

ولكن الطفل الأحمق أخذ يتململ فى موضعه ويضرب بقدميه ...

وعاد عبد البر يخاطبه بقوله ناصحاً :

ـ عيب .. عيب .. إثبت ، والا أفلت من يدى

ووقعت على الأرض .. كن عاقلا .. ماذا ترانى كنت فاعلا ـ لو أن أحداً حملنى كما أحملك ـ لاشىء . . أتوكل على الله ، وأستقر فى مكانى .

وتصور نفسه محمولا بتلك الطريقة تحت إبط عملاق ، فأزعجته الفكرة وسرعان ماطردها من رأسه .

وعاد الطفل يضرب بساقيه ، وخشى عبد البر أن يفلت منه ، وتصوره قد سقط على الأرض وشجت رأسه وقتل لساعته . . ثم تصور المرأة قد عادت لتجد طفلها قتيلا ، وتصورها قد أنشبت أظافرها فى عنقه ، وتصور الصحف وقد ظهرت وبها عنوان بالخط العريض « سفاح عمادالدين » وبعناوين فرعية كتب فيها « موظف يقتل طفلا فتقتله أمه » .

ترى ماذا يمكن أن تفعل أخته بهية ؟ ! هل ستبكيه أم تتبرأ منه . . باعتباره سفاحاً يجلب عليها العار ؟

وروعته الأفكار فاشتد تمسكه بالطفل وضغط عليه تحت إبطه بشدة حتى لايفلت وتقع المأساة التى دارت برأسه .

وهنا فاض بالطفل . . فانفجر باكياً صارخاً .

هذه هى الفضيحة الكبرى . . لم يكن ينقص الموقف إلا هذا الضجيج الذى يحدثه هذا الحيوان الصغير .. فيجذب إليهما أنظار المارة .

إنهم يرمقونه شزراً ، والبعض يضحك عليه . . كأنه « أراجوز » ، ولم يجد بداً من مخاطبة الطفل ونصحه بالسكوت . فقال له فى لهجة جادة منذرة محذرة :

ـ عيب ياجدع . . اختشى .

ولكن الطفل لم يختش ، بل ازداد صراخاً وازداد ضرباً بساقيه ، وازداد تبعاً لذلك ضغط عبدالبر عليه .

وعاد عبدالبر يقول ناصحاً :

ـ هذا لايصح . . لقد فضحتنا بين الناس . . اختشى ياسيدنا . . لاترفص هكذا برجليك . . هذا ليس شغل رجال . .

وفجأة سمع صوتاً يناديه فى دهشة ، والتفت خلفه فإذا بها أخته قد حضرت فى المترو التالى وبدأت تحملق فيه ذاهلة متسائلة :

ـ ماهذا ؟ .

ـ طفل .

ـ أنا أعلم أنه طفل ، ولكن مادخلك به ؟

ـ إنى أحمله عن أمه حتى تتحدث فى التليفون .

ـ أيها الأحمق . . اذهب واعطه لها . . لقد تأخرنا عن الموعد . . أين ذهبت ؟

وتلفت الرجل حوله ثم أجاب ببساطة :

ـ لست أدرى بالضبط .

ـ ماشكلها ؟..وماذا ترتدى ؟

ـ شكلها ؟ حلو ، ولست أذكر بالضبط ماذا كانت ترتدى .

ونظرت إليه المرأة فى يأس وقالت :

ـ رجل فى مثل سنك يقف فى شارع عماد الدين حاملا طفلا وحقيبة سيدات ، وطفل من ؟ . لايدرى . . ماذا شكل أمه وماذا ترتدى ؟ لايدرى . . ماذا أفعل بك حتى لاترتكب أمثال هذه الحماقات . . أأربطك بسلسلة ؟ ! كم مضى عليك وأنت واقف هذه الوقفة ؟

ـ خمس أو عشر دقائق .

ـ عشر دقائق ؟ . . أؤكد لك أن المرأة لن تعود . . إنها « تلقيحة » وأغلب ظنى أنها لم تجد حماراً يمكن أن تلقى إليه بالطفل غيرك وتفر هاربة . . لاشك أنها خادمة أو مربية . . وقد هربت وألقت إليك بالطفل . هيا بنا إلى القسم نسلم لهم الطفل فليس لدينا وقت لهذه « المسخرة » .

ـ القسم ؟ ! إن أمه لابد ستعود بعد لحظة . . إمسكى

الطفل حتى أبحث عنها فى أحد تلك الحوانيت . . إنى أذكر أنها كانت ترتدى فستاناً أزرق .

وبدأ محمود افندى يعدو من حانوت إلى حانوت يسأل كل من يصادفه عما إذا كان قد رأى امرأة مليحة ترتدى ثوباً أزرق ، وعلى حين غرة أبصر بتاكسى قد وقف على جانب الطريق وقد تدلى منه ذراع امرأة ذات ثوب أزرق فهجم على التاكسى صائحاً وقد أمسك بذراع المرأة :

— سيدتى . . لقد نسيت طفلك معى !

وأطلت من العربة امرأة عجوز ونظرت إليه شذراً وتمتمت فى دهشة :

— مجنون .

وأخيراً عاد محمود افندى إلى أخته يخفى حنقه ولم يجد هناك بدآ من أن يتبعها صاغراً إلى أقرب قسم بوليس . ووصلا إلى ميدان العتبة ودخلا قسم الموسكى ، ووقفا أمام الباشجاويش الذى أخذ يسألهما أولا عن اسمهما وسكنهما ثم أخذت المرأة تشرح القصة ، وعندما انتهت من شرحها نظر إليها الرجل ببلاهة دون أن يفهم شيئاً وسألها فى غيظ :

ـ ماذا تريدين إذاً ؟

ـ أريد أن أترك الطفل هنا . . .

ونظر إليهما الرجل فاغراً فاه من فرط الدهشة :

ـ تتركين الطفل هنا ؟ . . لكى نضعه فى الزنزانة . . . أم نختمه ونجعله حرزاً ؟ أم نحضر له سريراً ونطلب من البيه المأمور أن يحضر لإرضاعه ؟ . إننا لا نستطيع أن نعمل أكثر من مذكرة . . هنا قسم بوليس ، وليس ملجأ أطفال ! .

ـ أنا أعلم أنه قسم بوليس ، وأرجو أن تكون فى حديثك أكثر أدباً .

ولم يجب الباشجاويش بأكثر من أن يأمر جندياً بأن يطردهما خارج القسم . . فخرجا ووقفا برهة فى حيرة ثم طلب منها محمود افندى أن تذهب هى إلى الموعد حتى يعود هو مرة أخرى إلى محطة المترو لعل المرأة تكون قد عادت فيعطيها الطفل ويلحق بها فى جروبى .

وعاد محمود افندى حاملا الطفل والحقيبة ، وعندما وصل إلى محطة المترو كانت صورة المرأة قد تبخرت من رأسه تماماً فكان من العبث أن يحاول البحث عنها . . ولم يجد خيراً من أن يضع الحقيبة على الأرض ويجلس

عليها ويضع الطفل فى حجره وينتظر . .

وانتظر محمود افندى . وطال انتظاره . . حتى أحس بماء دافىء ساخن يسيل على ساقيه فأدرك أن الطفل قد (عملها . . .) وأصابه ارتباك شديد . وأدرك أنه لابد من تغيير ملابس الطفل وإلا أصابه برد ، وسحب الحقيبة من أسفله وافترش الرصيف وبدأ يبحث فيها عن غيار للطفل . فأخرج كل محتوياتها حتى عثر على ما يريد . . ثم بدأ يبدل ملابس الطفل ، وسط عاصفة من البكاء والصراخ ، وهو يزجره آونة ويدلله أخرى ، وأخيراً انتهى من مهمته الشاقة ، وبقيت مهمة أشق منها وهى إعادة الملابس التى تناثرت على قارعة الطريق إلى داخل الحقيبة . . وبدأ محمود افندى عملية « الحشر » فإذا بالحقيبة لا تسع الملابس .

وأصابه اليأس واشتدت به الحيرة . . وبدأ يشك هو الآخر فى أن المرأة قد « استكردته » فتخلصت من الطفل بإلقائه إليه ، ومن غيره يمكن أن تجده المرأة . . أكثر خيبة وأشد حمقاً ؟! !

ولم يسؤه الخاطر . . بل على النقيض .. أحس منه بفرحة ملأت قلبه ، إنه سيصبح مالك الطفل .. طفل لطيف

لم يتعب فى الحصول عليه ، وسيهيء له هـذا الطفل الضئيل فرصة طيبة للثورة على أخته والتخلص من قيودها ، فيسترد حريته المسلوبة . . أجل . . سيعلنها أنه سيبتاع حانوت الطوابع ويستأجر الطابق الذى فوقه ليكون على مقربة من الطفل .

ونهض محمود افندى من مكانه ، وقد عرته نشوة هزت جوانحه . . « ولفع » الطفل على كتفه ، وسار يهز الحقيبة فى يده من فرط الطرب . . إنه ماتخيل قط أن أمله يمكن أن يتحقق ، ولكن هاهو قد انتصر أخيراً . . مع هذا الطفل اللطيف . . ترى مااسمه ؟ . لابد له من أن يطلق عليه إسماً من الآن ، وليكن عنتر . . مثلا . . « إزيك ياسى عنتر . . مبسوط ياسى عنتر » !

ووصل إلى جروبى . . ولا أظن من اليسير بحال من الأحوال على أى امرىء . . . أن يصف حال أخته وقد جلست مع الرجل المحترم « على بك رحمى » . . تحدثه عن كفاءة أخيها ونبوغه ، وأنه مقبول فى وظيفته الحكومية . . ثم تبصر بأخيها المذكور وقد « هلّ » عليها من باب جروبى يخوض بين العيون المحملقة والأفواه الفاغرة مبتل البنطلون حاملا الطفل على كتفه بطريقة لم يسبق لها مثيل

فى عالم حمل الأطفال . . وأخذ يهز الحقيبة . . المنتفخة المنبعجة ، وقد افتر ثغره عن أعرض ابتسامة يمكن أن يفتر عنها ثغر .

ومضت لحظة ذهول قبل أن تفيق المرأة لكى تعرّف الرجل بأخيها ، ومضت لحظة ذهول أخرى قبل أن يفيق الرجل ليعرف أن هذا المخلوق هو أخوها العبقرى النابغة ، وجلس محمود افندى وهو فى حالة رضاء تام عن نفسه وكان أول مافعل هو أن مد يده فأمسك بإناء اللبن ودفع به فى فم الطفل قائلا فى غبطة « اشرب ياعنتر » ، وأخذ عنتر يجرع اللبن وقد بدت عليه هو الآخر أتم حالات الهدوء والاغتباط .

وبعد فترة صمت استعادت « بهيه هانم » نفسها وبدأت تدخل فى الموضوع فأنبأت على بك أن محمود افندى على أتم استعداد للتخلى عن عمله الحكومى فى سبيل خدمة الشركة ، ولكن محمود افندى قاطعها على حين غرة بقوله ببساطة :

— لا . . لا . . لقد قررت أن أبتاع حانوت الطوابع وأن أستأجر الطابق الذى فوقه لأكون دائماً على مقربة من عنتر .

وكانت صدمة ثانية للمرأة . . لم تفق منها هذه المرة إلا بعد أن استأذن على بك وتحركت وأخاها قاصدين إلى المترو للعودة إلى الدار .

وفى المترو جلست أمامه ترمقه بأقسى نظرات الحنق وقد وضع عنتراً فى حجره وأخذ فى تدليله ، وبدأت هى تهمس إليه مفرغة جام غضبها :

ــ أقسم أنك لست آدمياً . . هل يمكن أن يفعل إنسان غيرك مافعلت ؟ ! إنى لأعجب كيف بقيت إلى الآن فى عملك دون أن تفصل .

ونظر محمود افندى إلى عنتر يستلهمه شيئاً من الشجاعة ثم أجابها :

ــ لافائدة . . لقد قررت أن أستقيل وأبتاع الحانوت فأريحى نفسك .

ووصلا إلى الدار وهو يحس بسعادة تغمره . . فقد شعر لأول مرة أنه أضحى سيد نفسه وأن فروض السيطرة قد زالت عنه ، وصعد السلم حتى وصل إلى الباب . . فإذا به يبصر منظراً جعله يهبط من علياء أحلامه . منظراً أصابه بفجيعة ما بعدها فجيعة . . لقد أبصر أم الطفل تنتظر أمام الباب ومعها جندى بوليس .

وهجمت الأم تحتضن طفلها ناحبة باكية ، وهجم الجندى بدوره يقبض على محمود افندى ليسوقه إلى القسم متهماً بسرقة الطفل .

وكان على الأخت أن تقضى ليلتها فى محاولة الإفراج عنه ، وإفهام المأمور بأن محمود افندى لا يمكن أن يسرق .. وأنه ليس إلا رجل خيبة .

وعاد محمود افندى إلى داره فى الصباح .. بعد أن بات ليلته على الأسفلت ، وبعد أن تخلى عنه عنتر فى اللحظة الأخيرة .

ميدو قلب الأسد

كان ميدو رغم صغر سنه فى الثانية الثانوية . وكان نموذجاً للشقاوة الصبيانية ، أو كما كانت تسميه أمه « معجون بمية المقاريت » . ولم يكن هناك ما ينغص عيشه سوى وجود أبيه مدرساً للغة العربية فى مدرسة شبرا الثانوية التي كان ملحقاً بها . . فقد كان بمهامته وجبته وقفطانه . . مصدر متاعب له ومورد سخرية .

obeikandl.com

الساعة السابعة صباحاً فى أحد أيام ديسمبر . . منذ ما يقرب من الخمسة عشر عاماً . . وقد خيم فى الجو ضباب ثقيل ، وسار عبد الحميد على شحاته أو « ميدو قلب الأسد » كما كان يسمى نفسه ويسميه رفاقه وعصبته . . يطوح بحقيبته إلى الأمام وإلى الخلف « على طول ذراعه » وهو يجتاز دهليز طوسون ، الموصل بين شارع روض الفرج وشارع طوسون المؤدى إلى مدرسة شبرا الثانوية .

وكان « دهليز طوسون » ممراً ضيقاً لايزيد اتساعه على مترين يخترق المزارع ، ويقوم على أحد جانبيه سور شائك من أشجار الفتنة وغيرها من الشجيرات الشائكة المتكاثفة المتربة المليئة بالزواحف والحشرات . . ويكون هذا السور الحد الشرقى لحدائق المانجو المحيطة بمدرسة شبرا والتى كانت فيما مضى سراى الأمير عمر طوسون ، أما الجانب الآخر من الدهليز فتمتد بجواره مزارع القصب والخبيزة والسلق .

وكان أهم ما يشغل « ميدو » فى ذلك الصباح — غير مرجحة حقيبته — ذلك الدخان المتصاعد من فمه كلما نفخ فى الهواء . . لقد كان شيئاً مسلياً حقاً أن يرى نفسه « مدخنا » كأنه وابور حلوان ، وأن يخرج الدخان من فمه بغير حاجة

إلى أن يسرق من أبيه سيجارة يتسلى بتدخينها .

ووصل ميدو إلى نهاية الدهليز ، وقبل أن يلف على يمينه فى الطريق المؤدى إلى المدرسة عبر الشارع متجهاً إلى الساقية الكائنة فى الجانب الآخر من الطريق ووقف برهة يتسلى بمشاهدتها ويقذف بعض الحجارة فى البئر الذى ترفع منه الماء حتى نهره الفلاح من داخل الكوخ المجاور للساقية ونعته بابن الحرام ، فعدا إلى البوابة الكبيرة المفضية إلى طريق المدرسة .

ولم يكد يحتويه الطريق العريض حتى توقف برهة ومد يده فى جيب بنطلونه فأخرج زلطة مستديرة وانطلق يدفعها بقدمه حتى وصل بها إلى باب المدرسة عندما أفلتت من قدمه إحدى القذفات فأصابت ساق عم فضل البواب .

وصرخ عم فضل وأمسك بالزلطة ، وأقسم أن يعطيها لحضرة الناظر ويبلغه كيف كان ميدو يوشك أن يخرق بها عينيه .

وكان ميدو رغم صغر سنه ، ورغم أنه لم يتجاوز السنة الثانية بعد ، من أبرز الشخصيات وأشهرها فى مدرسة شبرا الثانوية ، وكان عمره وقتذاك لا يزيد على الرابعة عشر .. أبيض الوجه ، دقيق التقاطيع ، كبير الأذنين ، به شبه كبير

من الأرانب ، غزير الشعر ناعمه ، أنعم الله عليه بشيء من الوسامة ، لو أحسن استغلالها لبدا من أبناء الذوات ، ولكنه لم يحاول ذلك قط ، فقد كان شديد البهدلة دائم العراك ، وكان نموذجاً للشقاوة الصبيانية ، أو كما كانت تصفه أمه « معجوناً بمية العفاريت » ، ولم يكن هناك ماينغص عيشه سوى وجود أبيه الشيخ على شحاته مدرساً للغة العربية فى مدرسة شبرا ، فقد كان بعمامته وجبته وقفطانه ، مصدر متاعب له ومورد سخرية .

واجتاز ميدو فناء المدرسة بعد أن انتهت معركته مع عم فضل بعقد صلح مؤقت استعاد به الزلطة ، وسار يطوح بحقيبته وينفخ فى الهواء ، وقد تدلى شرابه على حذائه الأجرب ، ذى النصف نعل ، والدوبارة بدل الرباط وبدت ركبتاه مليئتين بالجروح والكدمات .

وكان ميدو لايرتدى قميصاً قط ، بل يكتفى دائماً بحشر الجلباب داخل البنطلون بعد أن يلفه جيداً حول وسطه ، وكان يرى فى ذلك توفيراً للقمصان وللوقت .

ووصل ميدو إلى فناء الجباز ، حيث تقوم الأجهزة من عقلة ومتوازيين ، وحصان ، وحيث توجد فى أحد أركان الفناء الحجرات الخشبية التى يستعملها فريق الكرة فى خلع

ملابسه ، وحيث توجد حجرة علوى افندى مراقب الألعاب الرياضية التى كانوا يدخلون إليها بسلم خشبى مركب على نافذة .

واستقر ميدو على إحدى الدكك الخشبية فى الفناء . . ووضع حقيبته بجواره وأخذ يرقب بعينيه الباب الآخر المؤدى إلى فناء الكرة كأنه ينتظر مجىء شخص بين آونة وأخرى .

وكان الوقت مبكراً ، والمدرسة قد خلت إلا من بضع فراشين تناثروا فى أرجاء المدرسة ، والضباب قد تكاثف فى فناء الكرة وبين أشجار الجوافة المتناثرة فى الفناء الخلفى .

وفجأة سمع صفيراً حاداً فأجاب ميدو على الصفير بصفير مثله ، وبدا شبح قصيرٌ يتسلل من باب ملعب الكرة إلى فناء الجباز مقبلا فى اتجاه ميدو .

ونهض ميدو يصافح الصديق ، وأفسح له محلا بجواره وبدأ الاثنان الحديث همساً .

كان القادم هو زكى إبراهيم جاد الله ، أو «أبو الزيك» .

وكان أبو الزيك — رغم أنف أبيه — وكيلا لجمعية التمثيل فى المدرسة ، فقد كان ممثلا بارعاً ، لا يعيبه إلا قصر

قامته ، وإن كان طول لسانه وشدة مكره قد عوضاه خيراً عن قصر قامته .

ولم يكن أبو الزيك فى مثل شقاوة ميدو ، بل كان أكثر منه هدوءاً وتؤدة واتزاناً ، وكان الاثنان يكونان شركة يعتبر أبو الزيك فيها العقل المدبر ، وميدو القوة المنفذة .

وجلس أبو الزيك على الدكة بقامته القصيرة ، ورأسه الكبير ، وأنفه الضخم ، وعينيه المنتفختين ، وساقاه مدلاتان لاتصل قدماه إلى الأرض ، وقد بدا حذاؤه لامعاً وشرابه مثبتاً على ساقه بأستك ، وبدت حلته نظيفة لا أثر فيها لتلك البهدلة التى تكسو حلة صاحبه .

وبدأ أبو الزيك الحديث بلهجة تمثيلية وقور :

— كل شىء قد بات على تمام الأهبة ياقلب الأسد .

— ماذا فعلت بالأمس ؟

— فعلت كل خير ، لم يعد ينقصنا شىء إلا الإقدام على الخطوة الأخيرة .

— وعم سعيد ؟

— لقد أضحى أطوع لنا من بناننا . . إنه لم يعد يشغل رأسه سوى عمارة سيف الدين ، وقد جلست معه فى حجرته

بالأمس بعد انصراف الطلبة ، وأفهمته أن من الجنون أن يضيع عمره سدى ، وأن عمل بواب فى مدرسة عمل لا يليق بعم سعيد . وأن مكانه اللائق هو فى عمارة سيف الدين وجلست أحسب له أجره ، وأجمع المبالغ التى سيدفعها له السكان ، عشرة جنيهات أجراً شهرياً وبالقليل خمسين قرشاً بقشيشاً من كل ساكن ، خمسين قرشاً فى مئة ساكن بخمسين جنيهاً وبإضافة الجنيهات العشرة تصبح ماهيته ستين جنيهاً ، أى أكثر من ماهية حضرة الناظر .

— وصدقك ؟

— طبعاً ، وقلت له إن خالى سيف الدين صاحب العمارة سينتظرنى غداً فى الظهر لأجل الحديث معه فى هذا الموضوع ، ولكنى لا أعرف كيف أخرج ، فأجابنى بأنه يستطيع أن يخرجنى فى أى وقت أريد .

— وأنا ؟

— سيخرجك معى .

— هل أخبرته ؟

— لاضرورة لإخباره .. سأقول له إنك معى وكفى .

— أنت تعلم أن العلاقة بينى وبينه ليست على ما يرام وإننى بالأمس فقط خطفت عمته .

ـ اطمئن .. دع أمر عم سعيد لى ، سأدعى أنك خارج معى لمقابلة عمك بهلر ، حتى إذا لم تنفع عمارة سيف الدين استبدلنا بها عمارة بهلر . . ولكن ماذا فعلت فى المسألة الأخرى .. إنها أهم مافى الأمر ؟

ـ لقد أعددت كل شىء . . واتفقت مع أم سيدة الغسالة أن أحضر لها الطفل لترعاه وترضعه حتى نأخذه منها ، وقلت لها إنه ابن فراش فى المدرسة ، توفى أبوه ومرضت أمه ، وإننا تطوعنا للعناية به . . حتى تبل أمه . . فنعيده إليها .

ـ فكرة هائلة . . ولكن . . ألا تخشى أن تشى بنا أم سيدة ؟

ـ ومن أدراها ؟ وما فائدتها من الوشاية ؟

ـ ومتى سنبدأ الهجوم ؟

ـ اليوم ظهراً ، نخرج فى الساعة الثانية عشرة من بوابة عم سعيد ، ونتسلل إلى البيت من الباب الخلفى . . وعليك أن تنتظر أمام باب الحديقة . . لتعطينى إنذاراً إذا ما رأيت أحداً ، أما أنا فسأظل رابضاً فى الحديقة حتى تحين الفرصة . . هذه مسألة تحتاج إلى سرعة وجرأة . . وأنت

إنسان بليد بطىء . . هذه المغامرة الجريئة لا ينفع فيها غير قلب الأسد .

ـ سأنتظر فى الخارج . حتى أتسلم منك الطفل ، ماذا تنوى أن تفعل إذا صرخت الخادمة ؟

ـ لا تتدخل فيما لايعنيك ، سأعرف كيف أتصرف ، إن مهمتك تبدأ عند تسلم الطفل .

ـ ولكن ألا تخشى أن يكون البيه الناظر موجوداً فى البيت ؟

ـ غير معقول ، إنه لا يترك المدرسة للغداء قبل الواحدة ، وأنا أعرف أن الخادمة قد اعتادت أن تضع الطفل فى شرفة البيت المطلة على الحديقة ، وأعرف أن المهمة لن تحتاج إلى كبير عناء وحذر ، لقد أحضرت شال العمة معى فى الحقيبة .

ـ وماذا تنوى أن تفعل به ؟

ـ هذه أسرار المهنة ، إنك لا تدرى شيئاً عن فوائده ولا أبى يدرى ، إن كل ما يفعله هو أن يلفه على عمامته ، أما أنا فسأعرف كيف أستفيد منه . . هل تعرف حبل الكشافة وفوائده ؟ .. إن هذا خير منه . . سأستعمله أولا كقناع أخفى به وجهى ، فإذا حاولت الخادمة أن تصيح

obeikandl.com

فسأكمها به . وكذلك يمكننى أن ألف فيه الطفل . . أشياء كثيرة يمكن فعلها به . . على أية حال أعتقد أن المسألة ستنتهى دون حاجة إلى استعمال العنف ، فقد راقبت الخادمة بضعة أيام فرأيتها كثيراً ما تترك الطفل فى الشمس وتدخل إلى البيت لمغازلة عبد ربه الطباخ . . سأحاول أن أنتهز إحدى هذه الفرص وأخطف الطفل بهدوء دون أن يحس بى أحد .

— لو تمت العملية لأصبحنا من الأثرياء .

— أثرياء فقط ! إننا سنذل الناظر ، ونكسر أنفه . . ونحصل على كل مطالبنا منه . . سنتقم لأنفسنا شر انتقام . . هل كتبت الخطاب الأول ؟

— أجل .

— اعطه لى . . إذ يجب أن أضعه مكان الطفل عند ما آخذه . .

وأخرج أبو الزيك ظرفاً من جيبه وسلمه إلى ميدو وبدأ ميدو القراءة :

« من الزعيم المخيف قلب الأسد رئيس عصابة الموت بالحانة السوداء إلى البائس المسكين على عبد المتعال ناظر مدرسة شبرا الثانوية » .

وقلب ميدو شفتيه وقال معترضا :

ـ ولكن هل تظن أن من العقل أن نذكر فى الخطاب صراحة اسم قلب الأسد ؟ ! إن الناظر قد يعرفنا بمجرد اطلاعه عليه .

ـ ليس هناك من يعرف اسمك هذا إلا أفراد العصابة على أية حال من باب الحرص لنجعله مخلب القط ، أو عين العنكبوت

ـ العنكبوت ليس له عين . لنجعله مخلب القط ، فهو أروع ، وما مسألة الحانة السوداء ؟

ـ هذه هى مقر ملتون توب ، وابن جونسون . . لاتخف من الرسالة . . فقد نقلتها بالضبط من الجزء الثانى من ابن جونسون .

ويعاود ميدو القراءة :

« لقد أخذنا طفلكم ، ولن يعاد إليكم حياً إلا إذا نفذتم الشروط التالية :

١ ـ إرسال مبلغ مائة جنيه . . وذلك بوضعها فى صندوق . . ودفنها تحت النخلة الموجودة فى نهاية دهليز طوسون .

٢ ـ إعطاء المدرسة أجازة شهر .

٣ ــ حذف مادة التاريخ الطبيعى والجبر والهندسة .

٤ ــ رفت على افندى كفته الضابط بالمدرسة .

٥ ــ جعل وكيل فرقة التمثيل رئيساً لها .

وهنا نظر ميدو إلى أبو الزيك وهز رأسه مغتاظاً :

ــ أيها الأنانى . إنك لم تذكر إلا نفسك ، أضف شرطاً سادساً ، وهو أن يجعلنى كابتن فريق الكرة .

ــ ولكنك لا تلعب كرة .

ــ هذا لا يهم . لن يعاد الطفل إلا إذا أصبحت كابتن للكرة ، واعطونى جزمة كنج ، وجوز أناكل ، وجوز شناجير .

ــ أمرك .

وتناول أبو الزيك الخطاب وهمّ بإضافة الفقرة الجديدة ولكن ميدو صاح به فجأة :

ــ أيها الغبي . سيعرف الناظر من هذا أن لنا علاقة بالعصابة . . إننا يجب ألا نذكر أى شىء يستدل به على أشخاصنا ، أشطب فقرة التمثيل والكرة ، واجعل المبلغ مئتى جنيه .

ــ لنجعله ثلثمائة . . مئة جنيه للتعويض عن رئاسة فرقة التمثيل .

ـ اخف الخطاب الآن . فإنى ألمح فرج افندى قادما .

ـ اسمع . . لقد تذكرت . . أضف بنـداً بترقية فرج افندى فهو رجل غلبان .

ـ أجل .. معك حق .

ـ وأضف أيضاً ترقية الشيخ على شحاته ، فالأقربون أولى بالمعروف .

وبدأ الطلبة يتوافدون على الفناء ، وافترق الصاحبان على أن يلتقيا الساعة الثانية عشرة أمام بوابة عم سعيد .

* * *

الساعة الآن الثانية عشرة والحصة الرابعة لم تنته بعد .. وبدأ ميدو وأبو الزيك يحومان حول بوابة عم سعيد ، ثم دخلا إلى حجرته .

وجلس ميدو على دكة بجوار الرجل الأسود السمين ، وأخرج من جيبه علبة سجائر ، وأعطى سيجارة لعم سعيد وسيجارة لأبى الزيك ، ثم أخرج من الجيب الآخر فم سجاير ووضع به سيجارته وبدأ التدخين .

ونظر أبو الزيك إلى الفم فى إعجاب وسأل ميدو :

ـ من أين أتيت به ؟

ـ سرقته هو والعلبة من قفطان أبى . إن اسمه منقوش

عليه .. إنه فم ثمين أهدى إليه من الشيخ خميس .

ثم وجه القول إلى عم سعيد :

— سنخرج الآن ياعم سعيد لمقابلة خالى سيف الدين .

— ستخرج أنت وحدك .

— وميدو ؟ ! ! إنه لابد أن يأتى معى .

ولكن الرجل نظر إلى ميدو فى غيظ ، وهزّ رأسه فى عناد وإصرار .

وغمز ميدو أبوالزيك أن يخرج هو ويدعه يتصرف مع الرجل حتى يقنعه .

وخرج أبو الزيك من الباب . . وعاد ميدو إلى بناء المدرسة وقد بدا عليه الأسف والضيق ولم يتجه إلى الفصول ولكنه ذهب إلى دورة المياه وخرج منها وقد خلع الجاكتة والبنطلون وسار بالجلباب واضعاً بدلته ملفوفة على كتفه ، ولمح عربة العيش تهم بالخروج من بوابة عم سعيد فعدا إليها وسار بجوار الحصان كأنه صبي بائع العيش ، وبعد لحظة كان يقف مع أبو الزيك خارج المدرسة ، وأبو الزيك ينظر إليه فى دهشة شديدة .

* * *

لنترك قلب الأسد وزميله ينفذان مؤامرتهما ، ولنذهب

إلى الشيخ على شحاته مدرس اللغة العربية بعد بضع ساعات وقد أخذ يجمع كراريس التحضير وهو يهم بمغادرة المدرسة ذاهباً إلى البيت ولا يكاد الرجل يفتح الباب . حتى يبصر الناظر وقد اقتحم عليه الغرفة فى هياج شديد ، ويصيح به :

— أين الولد أيها المجنون ؟ أين هو قل لى ؟ إنك لاشك قد جننت ، ما هذا الهراء ؟ !

ثم يدفع إليه بالخطاب .

ويذهل الرجل ويقرأ الخطاب ولا يفهم منه شيئاً . . ويستمر الناظر فى هياجه الشديد صائحاً :

— رجل فى مثل سنك يلجأ إلى مثل هذا الجنون ؟ . . أتريد الترقية بمثل هذه الوسائل الصبيانية ؟ أتختطف أولاد الناس من أجل درجة ؟ إنك لاشك قد جننت ! أين الولد ؟ أين الولد . . ؟

— أى ولد يا سيدى الناظر ؟ أرجوك أن تهدأ ، إنها لاشك وشاية أو نميمة .. إنى لم أغادر المدرسة قط .

— لا فائدة من الإنكار .. أنظر ، أليس هذا الفم لك ؟ أليس هذا شال عمتك ؟ لقد وجدنا الفم ملقى بجوار عربة الولد فى الشرفة ، ووجدنا شال العمة قد ربط به الباب حتى لا تستطيع الخادمة فتحه لتعدو وراءك وتستعيد الطفل . .

إن الخادمة تقسم أنها رأت طرف جبتك وأنت تعدو بالطفل .

ـ حرام عليك يا سيدى الناظر ، أقسم لك أنى لم أفعل شيئاً من هذا .

ـ إذن فلابد أن ألجأ إلى البوليس .

ـ أرجوك أن تهدأ وتفهمنى ماحدث . . اجلس قليلا لنتفاهم .

ـ أجلس !؟ ابنى مفقود يا أستاذ ، وتقول لى اجلس لنتفاهم ؟ ابنى ضايع . . مسروق . . مخطوف !

ـ كان الله فى عونك . . إنى أقدر مشاعرك . . ولكن أرجوك أن تهدأ . . حتى نستطيع التفكير قليلا . . نبثنى كيف حدث الحادث ؟ . . وأين كان الطفل ؟ . . وكيف وجد الشال والفم ؟

ـ لست أدرى شيئاً عن التفاصيل . . لقد كنت جالساً فى مكتبى عقب فسحة الغداء حوالى الساعة الثانية تقريباً . . عندما فتح باب الغرفة ووجدت عبد ربه الطباخ يندفع إلىّ زائغ البصر ، أصفر الوجه . . ويطلب منى الذهاب إلى البيت لأن بهاء ابنى قد سرق والسيدة تكاد تجن .

ـ معذورة . . كان الله فى عونها ، وماذا فعلت أنت ؟

— انطلقت بلاوعى وراء الطباخ .. وعبرت فناء الكرة وأنا أهرول . وفى لمح البصر كنت فى حديقة البيت .. فإذا بزوجتى تندفع إلىّ صارخة وهى أشبه بالمجنونة .. وحاولت عبثاً تهدئة روعها . . فقد كنت أنا نفسى فى حاجة إلى من يهدىء روعى ، ولكنى تمالكت جهدى وسألتها عما حدث فأنبأتنى أن سنيه الخادمة كانت تجلس بالطفل فى الحديقة . . وكانت هى فى الدور العلوى ، فلم تشعر إلا والخادمة تصيح بأعلى صوتها « الحقونى . إلحقونى . الحراميه سرقوا الولد » .

— كيف سرقوه .. هكذا فى رابعة النهار وأمام عينيها ؟ هذا شىء لا يصدق !

— لقد قالت أنهم هجموا عليها من باب الحديقة ثلاث رجال بجلاليب وشيخ معمم .

— ولماذا لم تصرخ وتستنجد ؟

— تقول إنها ذهلت . وأن الدهشة والخوف عقدا لسانها ، وأنهم هددوها بالقتل إن هى صرخت .

— وهكذا سرقوا الطفل أمام عينيها وهى ساكتة دون أن تبدى أية استغاثة ؟

— لقد صرخت .

— بعد أن فروا ؟

— هكذا تقول .. وهى تقول أيضاً إن الشيخ المعمم قد ربط الباب بشال عمامته حتى لايفتح . . وأنه قد ترك هذا الخطاب فى سرير الطفل ، وقد سقط منه هذا الفم وهو يهرول به إلى الخارج .

— وهذا الشيخ مفروض فيه أن أكون أنا ؟ ماشاء الله وهكذا قد انقلبت على آخر الزمن لأكون سارق أطفال ، المجرمه بنت المجرم .

— من هى ؟

— ومن تكون سوى الخادمة ، أؤكد لك أنها شريكة فى الجريمة .. وسأثبت لك سوء نيتها وكذبها . . بما لا يقل أدنى شك .

— كيف ؟

— سأدلك بواسطة الشهود ، على أنى لم أغادر المكتب طوال فسحة الظهر وأنى كنت منهمك فى تصحيح الكراريس وسأذهب معك إليها . . فإذا قالت لك أنى لم أكن ذلك الشيخ . . فماذا يكون رأيك ؟

وبدت الحيرة على وجه الناظر . . ولكن الشيخ شحاته جذبه من يده قائلا :

ـ هيا بنا أولا نرى الخادمة ، ونناقشها .

وسار الاثنان يستحثان الخطى إلى بيت الناظر ، ووقفا فى الحديقة يستجوبان الخادمة ، ومن وراء الباب كانت تصلهما نهنهة الأم .

وأخذت الخادمة تشرح الحادثة وهى وجلة خائفة . وأخيراً سألها الناظر :

ـ هل تستطيعين تمييز الرجال إذا عرضوا عليك .

وأجابت الخادمة فى قلق وتردد :

ـ أظن ذلك .

وسألها الناظر وهو يشير إلى الشيخ شحاته :

ـ هل هذا هو الشيخ المعمم الذى كان يصحب الرجال والذى رأيت طرف جبته ؟

وزاد القلق على وجه الخادمة واشتدت حيرتها وأخذت تتفرس فى وجهه ، ولكنها ما لبثت حتى تشجعت وقالت فى تردد :

ـ أجل . . إنه هو .

ثم ما لبثت حتى عادت تؤكد :

ـ أجل . . أجل . . إنه هو بعينه .

ـ أرأيت يا سيدى الناظر . . ألم أقل لك .

ووقف الناظر يقلب البصر فيما بينهما ، وقد ازدادت حيرته وشكوكه .. وأخيراً قال فى لهجة حازمة :

ـ على أية حال .. وأياً كان السارق ، سأعطى لهامهلة ربع ساعة ، وإذا لم يعد الطفل فسأبلغ النيابة .

وهنا تدخل عبد ربه الطباخ صائحاً :

ـ لا داعى للكذب يا سنيه . . قولى الحق ، إنك لم تكونى مع بهاء ساعة أن خطفوه . . لقد كانت تسألنى عن الساعة فى المطبخ وتركت الطفل فى الحديقة ، فلما عادت إليه لم تجده فى عربته ، وهى لم تر أحداً من اللصوص .. بل كل ما رأته هو الفم والخطاب والشال .

وصاح الناظر :

ـ هكذا ؟!

وصاح الشيخ شحاته :

ـ ولِمَ لم تقولى الحق يا بنت الصرمة . . لم تدعى على الناس كذباً وتتهمى الأبرياء ؟

وقاطعه الناظر قائلا :

ـ على كل حال .. الشال .. والفم والخطاب .

ـ أرجوك ياسيدى الناظر .. أنا لم أجن بعد حتى أفعل هذا .. ولكن دعنى أفكر قليلا : أين كان الفم .. فى الدرج

وأين كان الشال .. فى الدولاب . . والخطاب . . ماسره .

ثم صمت لحظة وهو ينظر إليه وأخيراً قال :

ـ اللعين . . ابن اللعينة . . لابد أن يكون هو الذى قد فعلها .

ـ من هو ؟

ـ عبد الحميد .. ابنى .. فلنبحث عنه ، ولنسأل عليه فى الفصل . فإذا لم نجده فلاشك أنه هو الذى خطفه وسأعرف كيف أحصل عليه وأربيه .

واندفعا الإثنان إلى فصل عبد الحميد . فإذا بميدو جالس فى الحصة وقد بدا عليه منتهى الهدوء والبراءة والطيبة .

وجذبه أبوه من قفاه خارج الفصل ووقف هو والناظر يسألانه :

ـ أين الطفل ؟

ـ طفل ؟ أى طفل ؟

ـ الطفل الذى سرقته .. ابن البية الناظر .

ـ أنا سرقت ابن الناظر ؟ وماذا أفعل به ؟ آكله ؟

ورأى أبوه أن يأخذه بالحسنى فقال متوسلا :

ـ يابنى يا عبد الحميد .. أعد الطفل . . ولن يفعل بك أحد منا شيئاً .

ـ قلت لك إنى لم أغادر المدرسة .

ـ وما رأيك فى هذا الخطاب ؟

وأمسك بالخطاب يقرأه وهو يتصنع الدهشة وأخيراً هز رأسه وقال بأسف :

ـ ومالى أنا ومخلب القط .. كل هذا ليس لى به شأن .

وقال الناظر يائساً :

ـ ليس أمامى إلا تبليغ النيابة .

ولكن الشيخ شحاته قال وهو يضرب سهمه الأخير :

ـ ليسمح لى حضرة الناظر بالذهاب إلى البيت فقد يكون المجنون ذهب به إلى هناك ؟

وقال الناظر فى لهفة :

ـ أجل ! أجل ! ربما قد فعل ذلك .

وذهب شحاته إلى البيت ووقف يطرق الباب ولم تكد امرأته تفتح له حتى فوجىء بصراخها فى وجهه :

ـ يا ضلالى ، يا فلاتى .. هذا الولد ، إيه حكايته ؟ هل تزوجت وأنجبته دون أن أدرى ؟

ـ ولد ! الحمد لله ، هاتيه بسرعه .

ـ متلهف عليه ؟ وحشك ؟

ـ هاتيه أولا .

— لقد أعدته معها .

— مع من ؟

— مع أم سيدة الغسالة ، لقد قالت لى إنها ذهبت إلى بيتها فوجدته هناك وأنبأها الجيران أن ابنك عبد الحميد تركه لها لكى تربيه .

— عبد الحميد .. ابن الكلب ، لقد كنت أعرف أنه هو الذى فعلها .

— طبعاً ، هو الذى فضحك .

وأطبقت على زمارة رقبته ، ولكنه تخلص منها صائحاً :

— اتركينى الله يستر عرضك ، إنه ابن الناظر وسيبلغ النيابة إذا لم أعده له بعد ربع ساعة .

وانطلق يعدو إلى أم سيدة .

وأخيراً أعاد الولد إلى أبيه ، وبقيت عليه مهمة أخيرة هى البحث عن ميدو .. قلب الأسد .

الذى كان يجلس تحت النخلة فى انتظار الفدية .

أم نجيّة

حقيقة أنها تعصب رأسها بمنديل بأويه . .
وحقيقة أننا نلمح فوق ركبتيها ـ أو ما انحسر
عنهما الجلباب ـ كورنيشاً لسروال ملون .
ولكن أيكفي هذا لجعلها من الجنس اللطيف ؟
ولكي نقول عنها « أم نجيه » ؟

obeikandl.com

تعال معى نشاهد ، أم نجية ، فى أول فم (بضم الفاء) .

تبدأ المعمعة بالتحضيرات الأولية .. حيث تنحنى أم نجية على وابور الغاز فتدفع فى جوفه بضعة أنفاس سريعة قوية متلاحقة ثم تمد يدها بالإبرة فتحشرها فى الثقب .. وتمر فترة قصيرة يبدو الوابور خلالها وقد كتمت أنفاسه وخبا أواره وانطفأ لهيبه .. ثم ترفع الإبرة .. فينطلق الدخان فى فحيح شديد ويبدو الوابور وكأنه قد نفس عن كربته بعد طول خنق وكبت .. وتسرع المرأة فتشعل عود ثقاب وتدفع به فى عجلة إلى ثقب الوابور الزافر الصافر ، فتنطلق النيران متأججة مستعرة ، ويدوى صوتها فى زئير وهدير .

وتزيح أم نجية الوابور جانباً ثم تجذب الصفيحة الفارغة فتدفع بها تحت الحنفية وتفتح الصنبور فتندفع المياه من فوهته وتتدفق هابطة إلى قرار الصفيحة محدثة مزيداً من رنين وصخب ومزيداً من ضجيج وقعقعة لو كان هناك — بعد صوت الوابور — من مزيد .

وتترك المرأة الصفيحة تمتلىء بالمياه وتلتفت إلى سبت الغسيل ، وقد كدست فيه الملابس وتعالت فوقه مكونة منه كوماً هرمى الشكل ينافس فى ضخامته أهرام الفراعنة

وتناثرت حوله بضعة مناديل وجوارب وخرق .

وزفرت أم نجية زفرة حارة وهى تقلب السلة بما فيها . . وأخذت تعبث فى الملابس بيدها باحثة فاحصة . . وكانت الصفيحة قد قاربت الامتلاء فنهضت من مكانها ورفعتها بين يديها ووضعتها على الوابور وبدأت تنتق من الملابس مايستحق الغلى فتكومه على حدة . ثم سحبت الطشت لترص فيه الفم الأول «ع البارد» واتخذت مجلسها أمامه مشمرة عن ساعديها حاسرة قميصها عن ساقيها . . وقد أحاطت بهما الطشت .

وتبدأ المرأة المعمعة . . وبيمينها سلاحها الماضى البتار قطعة من صابون الغسيل «أبو ميزان» . . تحك بها الملابس لتفنى ما علاها من أوساخ وبقع وعرق وأتربة . . وتثير بها من الرغوة البيضاء ما يملأ رحاب الطشت . . فتبدو كأنها زبد الموج فى بحر هائج مائج .

وتبدو أم نجية وقد انحنى ظهرها وأخذت ساعداها يتحركان فى الطشت حركة مستمرة منتظمة كأنها آلة لاتكل ولا تمل .

ولست أشك فى أن أول ما يطرأ على ذهن الإنسان حين يقع عليها بصره . . هو : لم كانت المرأة «أم نجية» ولم تكن «أبو نجية» ؟ .

كيف أمكن حشرها فى زمرة النساء ؟ . . وبأى حق نطلق عليها اسم الجنس اللطيف ؟ .

ومن يكون الجنس الخشن إذا لم تكن أم نجية ؟ .

هذا الوجه «القرودى» .. ذو العينين الضيقتين والأذنين الكبيرتين والأنف المفرطح والشفة العليا العريضة والسفلى المدلاة والأسنان المتناثرة والعنق الغليظ القوى المعروق المركب على جسد صلب متحجر « مقلحف » كأنه قد من صوان . . أو كأن العصارة التى به قد جفت فأضحى أشبه بجذوع الشجر التى لاتنفذ فيها البلط أو المناشير والتى لاتصلح إلا لكى تكون حطباً لنيران آكلة .

وهاتان الذراعان المفتولتان والساقان العجفاوتان اللتان تستطيع أن تميز تركيبهما عضلة عضلة ، وعرقاً عرقاً ، وهى تتحرك وراء طبقة الجلد السمراء الرقيقة .

أبعد كل هذا . . نقول إنها امرأة . . وجنس لطيف ؟

حقيقة إنها تعصب رأسها بمنديل بأويه ، . وحقيقة أننا نلمح فوق ركبتيها — أو ما انحسر عنهما الجلباب — كورنيشاً لسروال ملون .

ولكن أيكفى هذا لجعلها من الجنس اللطيف ؟ . . ولكى نقول عنها « أم » نجية ؟ .

وماقيمة منديل الرأس والسروال الملون فى أن يجعلاها « أم » نجية . . إذا كان « أبو » نجية . . يشاركها فيهما .

أى والله . . إن « أبو نجية » نفسه . . كثيراً ماضبط متلبساً بالسروال الملون . . ومتعصباً بمنديل الرأس .

أفيستطيع المنديل والسروال بعد هذا أن يكونا علامة مميزة للجنس اللطيف ؟

لنترك « أم نجية » منهمكة فى الغسيل . . محنية الظهر . . متحركة الساعدين مفتوحة الساقين بين الوابور والصفيحة والطشت وأكوام الغسيل ، ولننطلق فى ربوع الدار لنبحث عن الفردة الثانية . . أو « أبو نجية » .

كان الزوجان . . « أم وأبو نجية » مثلا لنقيضين . . فالمرأة عبوس متجهمة لا تعرف الابتسامة طريقها إلى وجهها ، والرجل مهزار خفيف الدم « ابن نكتة » لايكف عن الضحك قط . . ولم يكن هناك ما يخيف الرجل وينغص عليه حياته كامرأته . . وكان الاثنان يعملان كخادمين فى بيتنا الكبير الكائن بحارة الروم بالدرب الأحمر . وإنى أعنى بالبيت الكبير . . أنه كان كبيراً فقط . . لا فخماً ولا وجيهاً ولا عظيما . . وهل هناك أكبر من بيت يحوى فى داخله مسجداً وضريحاً . . يرقد تحت قبته ولى من أولياء الله

الصالحين يدعى « الشيخ ريحان » . . يزوره الناس للتبرك ولوضع النذور فى صندوقه .

ولقد كان صندوق النذور هذا مبعث « تشنيع » بين الأصدقاء . . فلقد كانوا يدعون أننا نعيش من نذور الجامع وإننا بنينا الضريح لكسب الرزق .

ألا يعتبر كبيراً ذلك البيت الذى يحوى بين رحابه مجاهل خربة . . لم نحاول استكشافها قط . . بدعوى أنها مسكونة !

هيا بنا ننطلق فى البيت الكبير . . ذى المشربيات والسراديب والدهاليز والدور المسروقة والمنادر والأقبية المظلمة ذات الجن والشياطين . . لنبحث فى كل ذلك عن أبو نجية . . وهى مهمة لو تعلمون عسيرة . . فالرجل لا يكاد يستقر له قرار فهو أشبه « بفرقع لوز » . . متواثب قفاز .

ها قد وجدناه أخيراً ، وقد تسلق التكعيبة ، وبدأ فى قطف « ورق العنب » .

وأى عجب فى ذلك ، والرجل يعيش فى الصيف على ورق العنب ، وفى الشتاء على إبر الوابور ، ومشابك الغسيل والشحاذة .

مفهوم ؟ ! ، أم تريدون بعض الشرح والتفصيل ؟

كان الرجل يعيش فى الصيف على ورق العنب ، فهو

لا يكاد يستيقظ من النوم ويطمئن إلى أن أم نجية ، أو « أم قويق » كما كان يسميها قد غادرت المندرة الملحقة بالبيت التى كانا يسكنانها معاً . وصعدت إلى أعلى لترعى شئوننا وتقضى حوائجنا ، حتى يتسلل على أطراف أصابعه ويخرج إلى الحديقة المترامية الأطراف المشعثة المتكاثفة المهملة المتربة فيتسلق التكعيبة ويبدأ فى جمع الورق ، حتى يملأ حجره ، ثم يذهب إلى « الفسقية » الواسعة المهدمة ، فيغطس فيها الورق لغسله ويبدأ فى رصه ثم لفه فيما يتيسر من مناديل الرأس ، وينطلق فى الطرقات لبيعه ، منادياً : « صباحى ياورق العنب »

ولا تستغرق عملية البيع سوى دقائق معدودات ، فهو لا يدقق فى السعر ، لأنه لا يريد أكثر من ثمن « القرعة » ، فلا يكاد يحصل عليه حتى يرمى ببقية الورق على قارعة الطريق أو يهبه لأى إنسان ، ثم ينطلق إلى أقرب « بوظة » .

ويعب « أبو نجية » من البوظة كفايته ، حتى « يستمخ » أو — على حد قوله — « يوزن راسه » ثم يعود إلى البيت مبسوطاً أربعة وعشرين قيراطاً ، مترنماً مترنحاً ، يضىء بياض أسنانه ، سواد وجهه ، ويهتز جسده الضئيل الأعجف من فرط الطرب ، وتائف ساقاه المعوجتان النحيلتان إحداهما حول الأخرى ، وينثر النكات ذات اليمين وذات اليسار .

هذا فى الصيف . أما فى الشتاء فالمسألة أعوص من هذا وأكثر تعقداً ، فالتكعيبة قد تجردت من أوراقها ، فحرمت « أبو نجية » من مورد رزقه السهل ، وأضحى الحصول على القرعة يحتاج منه إلى كثير جهد ومشقة .

ويفكر أبو نجية ، حتى يضنيه الفكر ، ثم ينتهى به دائماً إلى أمر واحد ، هو أن أم نجية سترفض رفضاً باتاً أن تعطيه مليما واحداً ، وهو لا يستطيع أن يسأل أحداً من أهل الدار ، لأنها قد حرمت عليهم أن يعطوه شيئاً ، وهم لا يجسرون أن يعصوا لها أمراً وهو كذلك لن يستطيع الوصول إلى كيس نقودها ، فهى تربطه فى تكة سروالها .

إذن لم يبق أمامه سوى أمر واحد ، وهو سرقة إبر الوابور ومشابك الغسيل .

أجل هذه أشياء يستطيع أن يسرقها منها دون أن تحس . وهكذا يبدأ أبو نجية فى جمع الإبر والمشابك ، والتسول على باب الضريح حتى يخرج من كل هذا بثمن القرعة .

لنترك الرجل يتواثب على التكعيبة كالقرد ليجمع فى حجره ورق العنب اللازم لبيعه ثم نصعد مرة أخرى إلى أم نجية .

المعمعة دائرة على أشدها ، نحن الآن فى « الفم » الثانى ، وأم نجية كزبانية جهنم تقلب الغسيل بالنشابة فى الماء المغلى

وقد تصاعد حولها الدخان وسالت من وجهها قطرات العرق .

لم يكن أبو نجية وحده هو الذى يخشى المرأة ، بل كان أهل الدار كلهم يخافونها . ورغم أنها كانت تقوم فى البيت بكل أعمال الخدم من غسل وطبخ وكنس ومسح وتنفيض فإنها لم تكن قط خادمة بل كانت مهيبة أكثر من أسياد البيت ، وأذكر أنى لم أكن أخشى أبوى كما أخشاها .

كيف لا . وجدى وجدتى وأبواى وأعمامى وعماتى يخشونها ويعملون لها ألف حساب ، لقد كانت خادمة جدى منذ الصغر وهى التى قامت بتربية أولاده جميعاً ، ولها على أهل الدار حق التربية .

* * *

وعاودت أم نجية « الفرالثانى » وتبعته بالثالث ثم رصت الملابس « المعصورة » فى السبت . . وحملتها على كتفها . . وصعدت إلى السطح لتبدأ عملية النشر .

وشدت الحبال ومسحتها . . وبدأت فى النشر ، ومدت يدها لتأخذ كيس المشابك حيث تعوّدت أن تضعه ولكنها

لم تجده . وهنا عضت على نواجذها . وانطلقت من فمها زفرة تهديد ونفاد صبر . وصاحت بأعلى صوت تسأل عن المشابك . فلم يجبها أحد .

ونظرت من أعلى السطح فوقع بصرها على أبو نجية ، وقد أقبل يترنح فى الحديقة بوجهه الأسود وجسده النحيل الضئيل وهو يصيح بأعلى صوته مترنماً : كيد العواذل كايدنى .

وصرخت المرأة بأعلى صوتها ، منادية الرجل بصوت يشبه الزئير :

ـــ أبو نجيه .

ونظر الرجل إلى أعلى ثم هز رأسه ببساطة فى تساؤل عن سر هذه الضجة .

وعادت المرأة تهدر صائحة :

ـــ هات المشابك قوام لحسن انزل لك ، أخلى يومك زى وشك .

وعاد الرجل ينظر إليها فى بلاهة ، وصاح ضاحكا :

ـــ يا ام قويق .. يحموا ابوكى فى كنكة .. أبوكى نشروه على الحبل من غير مشابك طار .. هع .. هع .. يا ام قويق قولى اشمعنى .

وهنا فاض بالمرأة غضبها ، وغلى مرجلها ، واندفعت

الصرخات من فمها كطلقات المدافع وصاحت به :

— والنبي واللى نبّا النبي . . لافرج عليك اللى مايتفرج . يا حرامى المشابك . يا اسود الوش .

وتركت الغسيل واندفعت على السلم هابطة كالقذيفة . . وقد أمسكت بيمينها نشابة الغسيل .

وبعد لحظة كانت تمسك الرجل من عنقه ، وتهزّه فى عنف صائحة :

— فين المشابك ؟

— مشابك إيه يا وليه ؟

— مشابك الغسيل اللى سرقتهم . . عشان السم الهارى اللى بتحطه فى جوفك . . والنبى لأطفحولك . . انطق . . فين المشابك ؟

— سيبينى يا وليه . . ماشفتش مشابك . . المشابك بتوعك دول ما يلزمونيش فى الصيف . . العنبه مخضره . . والورق كتير ، والأشيا رضا .

ولكن أم نجية لم تقتنع . . فالمشابك لا يمكن أن تضيع إلا إذا كان أبو نجيه قد سرقها .

ورفعت يدها بالنشابة وبدأت الضرب ، وعلا الصياح .

وهبط أهل الدار جميعاً على صوت الصياح ، وحاولوا تخليص الرجل من براثن المرأة عبثاً فقد أقسمت ألا تتركه

obeikandl.com

إلا إذا أعاد المشابك .

وبدأت المحاولات لإقناع «أبو نجيه» بأن يعيد المشابك بالتى هى أحسن ، ولكنه جلس يبكى وأقسم أنه لم يرها .

واستمر الضرب . . واستمر الصياح . . حتى تمكن الأهالى فى النهاية من أن يخلصوا الرجل من يدها بعد أن كلت من فرط الضرب .

واقتنع الأهل أن أبو نجيه مظلوم وأن المرأة قد افترت عليه بالضرب .. وحاولوا أن يقنعوها بأنه لم يسرق المشابك وأنه ليس فى حاجة إلى السرقة مادام ورق العنب موجوداً ومع ذلك فقد أصرت على أنه لم يسرقها سواه ، واستمرت تضربه كل صباح حتى يعترف .

وهكذا أصبح ضمن أعمال أم نجيه ، التى تواظب على أدائها يومياً . . علقه لابو نجيه « على الريق » تصبحه بها ، بغية استعادة المشابك .

وعندما أفكر الآن أجزم بأن الزوجين كانا على نوع من العته ، فالمرأة قد استمرأت عملية الضرب الصباحى ، والرجل قد تعوده حتى بات يستسيغه ولا يعترض عليه ، ولا يشكو منه كما يتعود المؤمن المصاب قضاء الله فيه .

إن المسألة قطعاً لم تعد على مرّ الأيام مسألة مشابك

مسروقة ، بل أضحت عادة ، وإن ظلت محتفظة من ناحية الشكل بمسبباتها الأصلية ، فلايكاد يرتفع صياح « أبو نجيه » فى الصباح ويتساءل أحدنا عن السبب ، حتى يجيبه الآخر ببساطة :

— المشابك .

ولقد ضقنا نحن ذرعاً بالضرب والصياح حتى قال جدى ذات يوم للمرأة زاجراً ، وكان أقدر أهل الدار عليها :

— إنت يا وليه مش تبطلى بقى الزيطه اللى بتعملها على الصبح . . كل يوم لازم تقلق منامنا وتصحينا على صوت الصريخ والصوات .

ونظرت المرأة إلى الجد ، ولوت رقبتها مشيحة برأسها إلى الناحية الأخرى كأنها تتقزز من منظره وحديثه . . ولم تجب عليه بكلمة . ولكنها « زامت » كالحيوانات . . علامة على أن الحديث لا يعجبها .

وعاد جدى ينهرها بقوله :

— إنت ياوليه . . إنت سامعه الكلام اللى أنا بقوله ده والا لأ .

— بتقول إيه ؟ .

— بقول لك كفايه ضرب بقى فى الراجل الغلبان المسكين .

— مسكين ؟ . . ياخى جه سكينه تخرط مصارينه ؟ . .

والمشابك اللى سارقها علشان السم الهارى اللى بيحرق جوفه برضه مسكين ! ؟

ـ ماقال لك إنه ماسرقهاش .

ـ ضلالى ابن ضلالى . . وكداب ابن كداب .

ـ ليه بس يام نجيه . . وهو يسرقهم ليه . . وقدامه ورق العنب مالى التكعيبه . . الراجل يادوبك مابيعوزش غير القرش الأبيض ثمن قرعة البوظه . . واحنا فى الصيف والتكعيبه مكفياه وأشيته رضا ، فلزومه إيه بقى يسرق المشابك . . يعنى حايعمل إيه بتمنها ؟

ـ مين يعرف ؟ دا أصله غويط . . ما حدش يعرف له نيه . . يمكن راح يتجوز ؟ .

ـ بتمن المشابك ؟ ! ! .

ـ يعنى هوا حايتجوز إيه ؟ مش شحاته زيه . . هو دا يستبعد عليه حاجه . . أنامش فى الشتا اللى فات قافشاه رابط وابور الجاز فى دكة اللباس وخارج بيه .

ـ على العموم . . إذا كان على المشابك . . أناجبتلك مشابك بدالهم . . ومستعد أجيب لك كل يوم دستة مشابك .

ـ أبداً . . لازم يرجع هوّا المشابك اللى خدها . . حاتنى وراه بالنشابه لغاية ما دوبها على جتته . . أو يرجع

المشابك بالتى هى أحسن . . يانا يا هوّا .

ويأس جدى من ردها عن غيها . . واستمر الضرب واستمر الصراخ .. فلم يجد بداً من أن يحاول أن ينهى المسألة بواسطة الطرف الآخر المعتدى عليه .

وأذكر أنه هبط ذات مرة إلى المندرة . . وهبطت فى أعقابه . . وكانت ساعة ظهر وأم نجية منهمكة فى الطبخ فى أعلى الدار . . وأبو نجية راقد فى ركن مظلم على قفص من الجريد وبالقرب من قدميه وعاء أشبه بقلة صغيرة من الفخار وضع فى أحد أجنابه قطعة من الغاب .

وأيقظه جدى فانتفض فزعاً وبدأ الصراخ .

وصاح به جدى ضاحكا مهدئاً :

— بس . . بس . . بتصرخ ليه ؟

وقال الرجل وهو يدعك أجفانه بيده وينتفض مرتجفاً :

— هىّ لسه مبتدئتش الضرب ؟ .

— لأ لسه . . ماتخافش .

— أنا مش خايف . . خليها تضرب وتخلص .

— طيب يا أخى ما توّفر على نفسك الضرب ، وترجع لها المشابك .

— ماخدتش حاجه .

— على العموم . خدت والا ماخدتش أنا حاجيبلك

دستة مشابك ترجعها لها وتستريح .

— مش مرجع لها حاجه أبداً . . وانا وهيّ والزمان طويل .. أما أشوف مين اللى حايغلب .

— هيّ بتضرب مش عشان المشابك . . هيّ خايفه لتكون بعتهم وحاتتجوز بتمنهم .

— أنا حاتجوز؟ ليه اتجننت؟ بعد اللى شفته من أم قويق .. أتجوز تانى !! يا أخى دول بيقولوا .. لايلدغ المؤمن من جحر مرتين .. وأنامش مؤمن .. إلا فى الحكايه دى بالذات .

— يعنى انت مبسوط من العلقه اللى بتاخدها كل يوم ؟

— لا مبسوط ولا زعلان . . أهى زى كل حاجه بنعملها فى عيشتنا . . أنا ما دام عندى القرعه والجوزه . . أهى كل حاجه محتمله .

ولما لم يجد الجد فائدة من الحديث معه ، فوّض أمره إلى الله . . ولم يجد هناك حلا . . خيراً من أن نعوّد نحن أنفسنا على علقة المشابك الصباحى ، كما كنا نسميها .

وظل الصياح يعلو من المندرة كل صباح . . حتى كان ذات يوم انقطع فيه الصياح ، فاعتقد أهل الدار أن الرجل لابد قد اعترف ، وأعاد المشابك . . وانتظروا أن تصعد أم نجية حاملة المشابك .. ولكن أم نجية لم تصعد .. لسبب

بسيط هو أنها قد ماتت .

وفوجىء الأهل بموتها وتملكتهم الدهشة والحزن .

ولم يشكو فى أنها راحت نتيجة ظلمها للرجل المسكين ، الذى اتهمته كذباً بسرقة المشابك وظلت تضربه كل يوم .

وخرج أبو نجيه متسللا كعادته إلى التكعيبة فجمع منها ما تيسر من الورق ، وانطلق من الدار .

وبعد برهة رئى وهو يعود مترنحاً مترنماً كعادته ، ثم اختفى فى الحديقة ليظهر بعد لحظات .. وقد حمل كيس المشابك المسروق .

وبهت الأهل وسألوه فى دهشة :

— ولما المشابك كانت معاك المده دى كلها .. مادتهاش ليه لأم نجيه ووفرت على نفسك الضرب ؟

— أصلها كانت ندر للشيخ ريحان .

— عشان إيه ؟

— عشان ربنا ياخد أجلها ويريحنى .

ثم رفع يديه إلى السماء وتمتم قائلا « الحمد لله » .

وتحرك أبو نجيه مترنحاً إلى الضريح ، وفى صندوق النذور ألقى بكيس المشابك .. وقرأ الفاتحة على روح « أم قويق » وعندما التقى بجدى بعد ذلك سأله ضاحكا :

— شفت بق يا عم !! مين فينا اللى غلب ؟!

الـواد عطـوه

عطوه ؟ ! ولـكن أين عطوه ؟

يا للحمق ! ! و يا للغباء ! !

ان عطوه الآن . لابد أن يكون غارقا في أية « غرزة » أو على أحسن الفروض يغط في نومه في بيت خالته « أم نفيسه » بائعة الفول النابت في سيدي زينهم فهو شديد التقرب منها في هذه الأيام من أجل ابنتها « نفيسة » .

obeikandl.com

استيقظ « بيومى افندى » على ضجيج الحمالين والركاب عند ما وصل القطار فى النهاية إلى محطة مصر .

ومضت فترة وجيزة نفض عن نفسه خلالها غبار القطار ودعك وجهه وعينيه ، وتثاءب بضع مرات . . ثم خلع المعطف الأبيض الشبيه بمعطف الحلاقين . . والذى يلازمه فى كل سفره ليقى بذلته شر السفر . . وليصد عنها عوادى الغبار والهباب . . ويجعلها فى غير حاجة إلى كى أو تنظيف .

وبدأ الركاب ينزلون من الديوان ، ووقف هو على أطراف أصابعه ومد يده فجذب الحقيبة المنتفخة الموضوعة على الرف ثم طوى المعطف بعناية وفتح الحقيبة فوضعه فوق المنشفة والجلباب والملفات المليئة بالأوراق ، ثم حمل الحقيبة ، وهبط من القطار منداساً بين أفواج الركاب المتحركين على الرصيف .

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشر مساء وميدان المحطة قد خفت فيه الحركة وبدت فيه بضع تاكسيات متناثرة يتصايح أصحابها بين آونة وأخرى : « تاكسى يا بيه ؟

وذابت جماهير الركاب فى الميدان وتشعبوا فى الطرقات والمركبات وعربات الترام واتخذ بيومى افندى طريقه إلى

الأوتوبيس الأزرق المتجه إلى الزيتون . واستحث الخطى حتى يحجز لنفسه مقعداً قبل أن تشغل العربة بالركاب .

واستقر به المقام على المقعد ، ودس الحقيبة فى أسفله . وأسدل زجاج النافذة حتى يتقى شر ريح صرصر كان يحس بها تنفذ إلى عظامه .

اطمأن بيومى فى مقعده ، وأعد النقود فى يده انتظاراً للكمسارى ، وأحس بالدفء والراحة . . فعاد النوم يهاجمه بلا هوادة .

لم يكن الرجل قد تعود السهر إلى تلك الساعة المتأخرة ولاسيما فى ليالى الشتاء . . لقد كان الليل يوشك أن ينتصف وهو يحس بجسد منهك وذهن مكدود بعد أن أمضى اليوم كله فى عمل مستمر ، وكان المفروض أن يكون الآن راقداً فى الفراش ينعم بالدفء والراحة . . ولكن ما حيلته وقد خذله حسين ابن عمه الذى كان ينوى أن يقضى الليلة عنده فى طنطا وسافر فجأة إلى دمنهور .

لقد أحس بخيبة شديدة عند ما طرق الباب دون أن يجيبه أحد ، وعند ما أنبأه البواب أن حسين افندى رحل إلى دمنهور وأنه لن يعود الليلة .

كانت الساعة تربو على السابعة . . ولم يكن أمامه سوى

أحد أمرين : إما أن ينزل فى أحد الفنادق وإما أن يعود إلى القاهرة ولم يطل به التفكير حتى استقر رأيه على العودة إذ لم يجد هناك مبرراً لأن يغرم أجر الفندق بعد أن انتهى من قضاء حاجته . . ولم يعد به من حاجة إلى البقاء .

أجل . . لقد حصل على معظم ما يبغى الحصول عليه من أوراق لازمة للقضية ، ولم يبق إلا بضعة أوراق تافهة يمكن المطالبة بها بالبريد . . فهم ليسوا فى حاجة ملحة إليها فى الوقت الحاضر .

وأحس يومى افندى وهو يتنهد فى مقعده فى الأتوبيس بشىء من راحة الضمير .. فقد استطاع أن ينهى عمله فى يوم واحد . . ولا شك أن عبد الرحيم بك سيقدر مجهوده خير تقدير ، وسيشكره على سرعة الحصول على الأوراق المطلوبة .. لأنه سيهيىء له وقتاً كافياً لدراسة تلك القضية المزعجة المعقدة .

وهنا شرد ذهنه فى القضية ، وأخذ يستعرض ما يعرفه من تفاصيلها ، وأحس بقشعريرة تسرى فى بدنه .

لقد كانت جناية مروعة .. قتل فيها المجنى عليه بسكين حزت رقبته من الأذن إلى الأذن ، وتركت الرأس تتدلى من الجسد معلقة على بضعة عروق .

لقد شاهد بنفسه منظر الجثة . وقد تجمدت الدماء من حولها . وبدا انحنى عليه أشبه بخروف الضحية . وقد وجد بجواره السكين الذى ذبح به . . سكين مطبخ مشحوذ السلاح ، مدبب الأطراف .

أى وحشية هذه التى دفعت القاتل إلى أن يرتكب تلك الفعلة المنكرة ؟ .

ولِمَ ؟ ! وما هى الدوافع ؟

إن الرجل لم يكن شديد الثراء حتى يطمع قاتله فيه . . ولا كان بالرجل المشاكس حتى يقال إنه قتل لثأر قديم .

إن المسألة تخفى وراءها كثيراً من الأحاجى والألغاز ، أو من يدرى ؟

ربما كان الرجل قد ذهب ضحية ظن خاطىء وقد يكون القاتل لصاً توهم بالرجل ثراء فسطا على داره . . فلما قاومه الرجل ذبحه ذبح النعاج .

على أية حال . . لقد حامت الشبهات حول البواب ، وألقى القبض عليه فعلا ، ولكن الرجل يبدو بريئاً ويقسم أنه مظلوم

وأحس بيومى بالأتوبيس قد توقف . . وفتح عينيه وحملق فيما حوله فاستطاع أن يميز أنه قد وصل إلى العباسية

وأبصر بالساعة التى تتوسط الميدان . . فإذا بها تشير إلى الثانية عشرة إلا ربعاً . . بعد ربع ساعة سيصل إلى الدار وربع ساعة أخرى سيكون راقداً تحت اللحاف فى فراشه الدافىء ، وهو يستطيع أن يتأخر فى الاستيقاظ كما يشاء . . فيعوّض سهر الليلة .

وأحس بيومى بانقباض فى معدته وحركة فى أمعائه ، وتلك أولى دلائل الجوع عنده .

إنه لا شك جوعان . . بل جوعان جداً . . فهو لم يتناول لقمة واحدة منذ أن تناول غداءه فى أحد مطاعم ضنطا فى الساعة الواحدة ظهراً .

عشر ساعات لم يتناول فيها لقمة واحدة ؟ . هذا كثير !

لا بأس عليه . . إنه سيعوض معدته خيراً بعد طول الصبر والانتظار . . إن خادمه عطوه يستطيع أن يرضيها بطبق من البيض المقلى ، وشىء من الجبن والزيتون .

أجل . . أجل . . إنه يذكر أن فى الثلاجة مالا يقل عن عشر بيضات ، ونصف أقة جبن ، ونصف أقة زيتون ، وهو لا يعتقد أن الخنزير عطوه قد سطى عليها . . أو على الأقل لا بد أن يكون قد ترك له بعضها — خمس بيضات مثلا ، وبعض الجبن والزيتون — ولكن ترى هل سيجد هناك

خبزاً ؟ لقد سبق أن نبه عليه مئات المرات ألا يترك البيت بلا خبز . وأنه لابد أن يكون هناك رغيفان للطوارىء .

وهل يمكن أن يكون هناك طوارىء أكثر من هذا ؟

حمداً لله . إن الرغيف الأبيض ينفع فى الليلة السوداء هذا إذا كان عطوه الحمار قد تذكر الأمر وقام بتنفيذه .

عطوه ! ! ولكن أين عطوه ؟ !

وفجأة ضرب بيومى افندى جبينه بيده . . كمن تذكر أمراً خطيراً .

يا للحمق . . ويا للغباء . . إنه ان يجد عطوه فى البيت . لعنة الله عليه من غبي ضعيف الذاكرة . . أو قد نسى أنه قد أعطى لعطوه أجازة اعتقاداً منه أنه سيبيت ليلته فى طنطا .

إن عطوه الآن لابد أن يكون غارقاً فى أية « غرزة » أو على أحسن الفروض يغط فى نومه فى بيت خالته أم نفيسه بائعة الفول النابت فى سيدى زينهم . . فهو شديد التقرب منها فى هذه الأيام من أجل ابنتها « نفيسه » .

كيف يستطيع العثور عليه الآن . . أو كان لابد له أن يجب فى سيدى زينهم ؟ هذا من فرط غبائه ، ومن غضب الله عليه .

إذا كان يعمل فى الزيتون فلم لا يجب فى الزيتون . أو

على الأقل فى كوبرى القبة . . أو فى منشية البكرى .

وفجأة مد بيومى افندى يده وتحسس مفتاح الشقة فى جيبه حتى يتأكد من وجوده . وإلا كان المصاب أخطر شأناً . واضطر إلى كسر الباب ، أو قضاء ليلته فى هذا البرد بلا مأوى .

وأطلق من صدره تنهيدة ارتياح عند ما اطمأن إلى المفتاح ، وحمد الله الذى يلهمه دائماً فعل الصواب .

ماذا يمكن أن يحدث لو لم يكن يحمل فى جيبه مفتاح الشقة ؟

وهنا توقف الأوتوبيس . . وحملق بيومى خلال الزجاج فتبين أنه قد وصل إلى المحطة التى يجب عليه النزول فيها . . فوثب من مكانه ، ودفع جاره بمنكبه حتى يخلى له الطريق قائلا فى عجلة : « عن إذنك » ، ثم مد يده فجذب الحقيبة من أسفل المقعد ، وهرول هابطاً من الأوتوبيس وهو يصيح بالسائق محذراً بين آونة وأخرى « حاسب . . حاسب من فضلك » .

وأخيراً . . أنال بيومى افندى قدميه ظهر الأرض . . وأحس بالاستقرار عليها . . وانتظر حتى تحرك الأوتوبيس ثم عبر شارع سليم إلى الرصيف الآخر . . ودلف فى أحد

الشوارع المتفرعة التى تؤدى إلى السكة الحديد حتى وصل إلى مزلقان الزيتون ثم عبره إلى الناحية الأخرى .

وكان أمامه مايقرب من خمس دقائق ، فقد كان البيت كائناً فى طرف الضاحية . . لا يفصله عن المزارع الممتدة شىء .

لقد كان البيت مثالياً من الناحية الصحية والناحية المالية فهو خلوى إلى أبعد حدود الخلاء . رخيص إلى أبعد حدود الرخص . . ولكنه مع ذلك لا يعدم السيئات . . فهذا الإفراط فى الخلاء يسبب لبيومى افندى كثيراً من المخاوف والمتاعب . . وهو لا يجسر إلا فى القليل النادر ، وتحت الظروف الطارئة أن يعود إليه فى ساعة متأخرة من الليل . لأنه يخشى عواء الذئاب والظلمة والوحشة وفرط السكون ويتوهم فى حلكة الليل أشباحاً ولصوصاً تجوس فى المزارع وفى الطرق المعتمة . . ولا يجسر أيضاً مهما اشتد الحر فى ليالى الصيف أن ينام والنوافذ مفتوحة . . فهو يخاف أن يهبط إليه اللصوص .

وأخذ بيومى يقترب من الدار وقد شملته ظلمة حالكة وهبت عليه من المزارع ريح رطبة باردة أصابته بقشعريرة فى جسده . وأسرع الخطى مهرولا تجاه البيت ، وقد أصابه وهم بأن هناك من يطارده .

وأخيراً وصل إلى البيت . ودلف من الباب الخارجى ، ووقف برهة فى « بير السلم » ، وقد تكاثفت فيه الظلمة حتى لم يعد يرى أبعد من أنفه .

وبدأ يتحسس طريقه صاعداً الدرج بالتوجيه وبحكم العادة ومر بالطابق الأسفل فلم يلمح من بابه بصيص ضوء .

ويحه . . إن البيت قد خلا الليلة إلا منه . . فقد تذكر فى تلك اللحظة أن جاره الذى يقطن فى الطابق الأسفل مسافر هو الآخر فى مأمورية منذ بضعة أيام . . وسرى الخوف فى نفسه . . فقد كانت المرة الأولى التى يبيت فيها وحيداً فى البيت . . لقد كان عطوه — لعنة الله عليه — يؤنس وحشته ، ويبعث فى نفسه كثيراً من الطمأنينة .

وانتهى من صعود الدرج . . وأخرج المفتاح من جيبه ووقف أمام باب شقته ليتحسس فتحة المفتاح ، ودفعه فيها وأداره دورتين . . ثم دلف إلى الداخل . . ومد يده فى الظلمة حتى استقرت على مفتاح الكهرباء ثم ضغط عليه .

ولكن الكهرباء لم تضىء . . لقد كان بها خلل .

يا للنحس ! ويا لليلة السوداء ! حتى النور ! .

ودفع بيومى يده فى جيبه فأخرج علبة الثقاب . . إنه يذكر أن فى أحد أدراج البوفيه شمعة صغيرة يستطيع أن

يشعلها ويستعين بها على تبديد تلك الظلمة المروعة ، وأشعل الثقاب فأحدث حوله دائرة من الضوء كشفت عن الأشياء المحيطة . . وكان أول ما وقع عليه بصر بيومى افندى هو سكين كبير . . مشحوذ الحد . . مدبب الطرف . . وتذكر الرجل القتيل . . وتذكر عنقه المعلق على بضعة عروق . . ودماءه المتجمدة حوله . . وندت عنه صرخة مكتومة . . وأحس كأنه يوشك أن يخر مغشياً عليه .

يا للجبان الرعديد ! ! ماذا أصابه ! هذا سكين المطبخ قد نسيه عطوه على المنضدة ! ماذا روعه منه ! ؟

الكلب عطوه !! والله ليرينه عاقبة إهماله عندما يعود ، لقد أمره بأن لا يترك الملاعق والسكاكين مبعثرة على المنضدة بل يضعها فى دولاب « المطبقية » ومع ذلك لا فائدة من نصحه فهو لا يلتفت إلا « للسخرة » .

وسار بيومى متمهلا على ضوء الثقاب ، ولكنه توقف فى مكانه مرة أخرى . . لقد وجد الدولاب القديم الموضوع فى ركن الصالة مفتوحاً . . وبدا له كأن هناك شبحاً يكمش داخل الدولاب .

وأحس بخوف شديد . . ما الذى فتح الدولاب ؟ من يكون هذا الذى يتحفز داخله ؟ ! لص ولا شك !

obeikandl.com

ولكنه تذكر أن الدولاب دائماً يفتح من تلقاء نفسه لأنه ليس به قفل ، ولأن ضلفته يميل ثقلها إلى الخارج فهى لا تستقر إلا مفتوحة . . أما الشبح الأسود فليس سوى صرة الملابس القديمة البالية يحفظها عطوه لكى يمزقها ويصنع منها سجادة .

وتمالك الرجل نفسه حتى وصل إلى البوفيه . . وفتح الدرج وهو يرتجف وقد تلاحقت أنفاسه حتى لم يعد يسمع فى السكون الشامل سواها وانطفأ الثقاب . وسادت الظلمة برهة ولكن سرعان ما بددها ضوء الشمعة .

ووقف بيومى ممسكا بالشمعة ، وأحس بأمعائه تنقبض وتتلوى . . إنه الجوع !

لا . . لا . . ليس هذا وقت أكل . . إنه لا يجسر على الذهاب إلى المطبخ . . خير له أن يسرع فينكمش فى فراشه وإلا مات رعباً .

ولمح الدولاب القديم على ضوء الشمعة . . فسرت فى جسده القشعريرة مرة أخرى ، وأسرع فدفع الضلفة بيده وأغلقها جيداً ، ثم سحب مقعداً فأسنده إلى جوارها حتى لا تفتح مرة أخرى فهو لا يطيق النظر إلى الشبح الأسود الذى تظهره صرة الملابس .

كل هذا من عطوه ؟ ! أية سجادة تلك التى يريد العبى صنعها من الملابس القديمة ؟ والله ليقذفنها من النافذة بمجرد شروق الشمس .

واطمأن بيومى إلى غلق الدولاب المخيف ثم اتجه إلى غرفة نومه ممسكا بالشمعة فى يد وبالحقيبة فى اليد الأخرى .

ووضع الشمعة على منضدة صغيرة فى حجرة النوم . ثم أسرع بخلع ملابسه بسرعة البرق ولم تمض بضع ثوان حتى كان قد أطفأ الشمعة وانطوى فى فراشه مخفياً رأسه تحت الوسادة وقد أخذت أسنانه تصطك وأطرافه ترتعش.

وبدأ يطمئن نفسه بعد أن استقر فى الفراش قائلا لنفسه إنه ليس هناك ما يستدعى منه كل ذلك الخوف والرعب ، وأن الدار هى هى التى يبيت فيها كل ليلة .

وبدأت أعصابه تهدأ ، وجفونه تتثاقل عند ما سمع فجأة صوتاً جعله يرهف السمع ، وجعل أعصابه تتوتر من جديد .

أيمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟

لقد سمع صوت الدولاب يفتح ، ولم تكن الضلفة فى هذه المرة تفتح من تلقاء نفسها بل بفعل فاعل . . لأنه سمع صوت المقعد الذى يسندها وهو يدفع عنها .

إذن لم تكن هى الصرة بل كان شبحاً رابضاً .

لا . . لا . . إن ما سمعه ليس سوى من فعل الأوهام .

على أية حال خير له أن يغلق باب الحجرة عليه بالمفتاح زيادة فى الحرص والاطمئنان .

ونهض الرجل متسللا فى الظلمة المعتمة على أطراف أصابعه وأغلق الباب وأدار المفتاح فيه دورتين . وهمّ بالعودة إلى الفراش .. عند ماأحس بوقع خطوات تقترب من خارج الباب . . ثم أبصر بأكرة الباب تتحرك ببطء .

وأحس كأنه يوشك أن يتهاوى على الأرض .

هذه المرة لم يعد هناك شك لأن الأكرة تتحرك أمام ناظره والباب يهتز .

ووضح له الأمر فى سرعة البرق . . وأدرك لِمَ كان السكين موضوعاً على المنضدة !

وتذكر القتيل .. والسكين الذى حز عنقه .

أيمكن أن تتكرر المأساة . . وتختتم حياته بمثل هذه الخاتمة التعسة ؟

لا . . لا . . يجب أن يتمالك وينفض عنه ذلك الرعب . يجب أن ينجو بنفسه .

ونظر حوله كفأر حبس . . وتخيل اللص وهو يدفع

الباب وقد أمسك السكين فى يده وهجم عليه فجز رقبته من الأذن إلى الأذن .

ولم يكن أمامه وسيلة للنجاة سوى النافذة .

وأحس بالباب يهتز . . وخشى لو طال الانتظار أن يتهاوى الباب أمام قوة الرجل . فأسرع فى لمح البصر وفتح النافذة فهبت منها ريح صرصر عاتية . . ولكنه لم يشعر بأية برودة لأنه فقد فى ذلك الوقت كل إحساس إلا بالخوف المميت .

ووقف بيومى على حرف النافذة كريشة فى مهب الريح وتذكر أن هناك كورنيشاً يحلى واجهة الدار ويمر من أعلا النوافذ وأسفلها وتبين أن هذا الكورنيش يمكن أن يهيء له وسيلة للنجاة لو استطاع أن يسير على الحافة السفلى ممسكا بيده الحافة العليا .

ولم يستغرق منه التفكير فى ذلك سوى ثوان معدودات وبدأ ينفذ مشروع النجاة . . وأخذ يتحرك بخطوات جانبية بطيئة على حافة الكورنيش السفلى . . وقد تعلق بيديه فى الكورنيش العلوى . . وأخذت الريح الباردة تضرب ظهره وبدا كأنما هو عنكبوت معلق فى حائط الدار .

على أية حال . . إن هذا خير من أن ينتظر حتى يجز الرجل رقبته بالسكين .

وفجأة أحس أن الكورنيش قد انتهى ، وأنه لم يعد هناك ما يستطيع أن يستند إليه فيما لو حاول السير ، وأيقن أنه قد وصل إلى النافذة المجاورة لنافذته ، وأن كل ما ساره لا يعدو أن يكون بضع خطوات . . ثم تذكر أن النافذة لابد أن تكون النافذة المطلة على بئر السلم . . ووجد أن خير طريقة للنجاة هى أن يهبط من النافذة إلى الداخل ، ثم يتخذ طريقه على السلم إلى خارج الدار .

وهبط بيومى فى سكون من النافذة فاستقر على بسطة السلم . . وهمّ بالاندفاع إلى أسفل عند ما وجد باب شقته يفتح من الداخل . . وأبصر بضوء خافت كضوء الثقاب يشع من خلال الباب ، ثم وقع بصره على السكين .

وتسمر بيومى فى مكانه ، والتصق بالحائط .

ماذا يفعل ؟ أيعود إلى النافذة ؟ أم يندفع إلى أسفل ؟

إن الرجل سيتبعه فى كلتى الحالتين وسيحاول اللحاق به ، وهو لا شك أخف منه حركة ، ويستطيع أن يمسك به .

ومضت فترة وهو لا يقوى على الحراك ، وأحس أن أعصابه توشك أن تخونه . . وأنه على وشك أن يخر مغشياً عليه .

وبدا اللص من الباب وقد شهر بيده سكين المطبخ . .

وباليد الأخرى أمسك عود ثقاب .

ونظر إليه بيومى افندى وصرخ بكل قواه :

ـــ عطوه ! !

أجل لقد كان عطوه بعينه ودمه ولحمه . . لقد طردته أم نفيسه ، فاضطر إلى أن يقضى أجازته فى الدار ، واستيقظ على صوت حركة فى الشقة وأحس بإنسان فى حجرة بيومى افندى يحاول أن يغلق الباب من الداخل ، فتأكد أنه لص وأنه يوشك أن يفر من النافذة ، فهبط ليتلقاه فى الحديقة .

ونظر عطوه فى ذهول إلى بيومى افندى وهو يقف على البسطة مرتدياً الجلباب وصاح به :

ـــ بيومى افندى ؟ !

وأجابه بيومى افندى فى ذلة ومسكنة :

ـــ إلحقنى يا عطوه . . دمى نشف .

ولأول مرة . . سمح بيومى افندى لنفسه أن يخرّ مغشياً عليه .

عبد الجادر عبد الدليلي

وبدأت الفتاة تغدق على خدماتها وعطفها ، وتنظف الحجرة وتؤثثها وتتسكع بها ماشاء لها التسكع .

وأحسست من أفعالها هذه ، ومن تصرفاتها وتسكعها أنى يجب أن أفعل شيئاً ، وألا أمعن فى جمودى وحيائي وأبى فأكون عند قولها « حمار من الشرق »

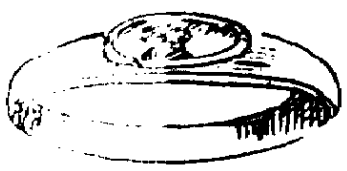

obeikandl.com

هو صديق صبا وزميل طفولة . . وقد كان — أعنى هذا الحمار من الشرق — حماراً منذ عرفته . . . ولكنه كان وقتذاك حماراً من « قبلى » . . أى حمار محلى ، ولم يكن قد اتخذ بعد هذه الصفة العامة العالمية .

اسمه محمد . . بكسر الحاء والميم . ولقبه عبد الجادر عبدالدليل . . أى عبد القادر عبد الجليل . . (بقلب القاف الأولى جيماً والجيم الثانية دالاً . . للثقل والتعذر . . أعنى ثقلها على لسانه وتعذر نطقها عليه) وشهرته ، محمدالفوتبول ، وبلده فاو الريسية مركز نجع حمادى .

أما عن شهرته بالفوتبول . . فمرجعها إلى أنه كان التلميذ الوحيد فى سنة رابعة ثانى بمدرسة محمد على الابتدائية الذى كان يملك جزمة فوتبول .

ولم يكن محمد الفوتبول . . بلاعب ماهر للفوتبول . . حتى تملأ شهرته بهذا الاسم الآفاق . . بل إنه كان يرتدى هذا الحذاء فى كل وقت . . عدا أوقات لعب الفوتبول .

أما عن ارتدائه إياه فى كل وقت . . فقد كان أمراً طبيعياً ، لأنه لم يكن يملك غيره .

ولست أشك فى أن ستة الأزواج من « الاستدز » . .

التى يرتفع عليها نعل هذا الحذاء كانت سبب ابتلاء صاحبنا به فقد كانت هى التى أغرت أباه الشيخ عبد القادر بشرائه له .

ولكن العجيب . . هو خلعه ساعة اللعب . . أى فى عز المعمعة .

ذلك كان أمراً عجيباً . ولكن — كما يقول المثل — إذا عرف السبب بطل العجب ، ولم يكن للأمر العجب سبب واحد بل كان هناك مائة سبب .

السبب الأول : هو أن أباه قد أوصاه بالحذاء خيراً .

والسبب الثانى : هو أن محمداً نفسه . . كان يخشى على نفسه من الكعبلة والزحلقة ، إذا هو غامر باللعب به .

والسبب الثالث : هو أنه كان يعتقد ـ وهو على حق ـ أن قدمه كانت أشد صلابة من الحذاء .

والسبب الرابع : وهو أهمها جميعاً . . هو أن الحذاء لايكون موجوداً معه خلال اللعب . . بل يكون مؤجراً لأحد اللاعبين .

وقد يبدو إيجار صاحبنا لحذائه أمراً غريباً ، وقد يظنه القراء من باب المبالغة والتشنيع ، ولكنى أؤكد لهم أنه كان وقتذاك أمراً طبيعياً جداً .

كان حذاء محمد من نوع الكنج الأبيض ، حذاء فاخراً

معتبراً ، وكان يجعل صاحبه محسوداً منا . . فقد كان الحذاء الفوتبول أقصى أمانينا وقتذاك . . فقد كنا من غواة اللعبة ولكننا لم نكن نجيدها إلى الحد الذى يحشرنا فى زمرة تيم المدرسة المتمتع بلبس أحذية الكرة ، والذى كنا ننظر إليهم نظرة المحسودين أنصاف الآلهة .

وكان محمد هو الوحيد من بين العبيد الذى يمتلك الحذاء السحرى . . حقيقة أنه لم يكن يمتلك غيره ، ولكن ذلك لم يكن يحط من قيمته لدينا . . بل كنا نتمنى كلنا أن نكون مثله ، وأن يستبدل آباؤنا تلك الأحذية الرقيقة بأحذية فوتبول ضخمة ، وماحاجتنا إلى الأحذية الرقيقة ، وقد كانت لاتستغل إلا فى لعب الكرة وشوط الزلط والطوب .

ولقد بدأت عملية الإيجار بأن سأل أحدنا محمد المحسود أن يعيره الحذاء ذات مرة ، فرفض وأنبأه بأن أباه حذره من أن يخدشه أو يتلفه ، وهكذا قطع علينا محمد كل أمل فى استعارة الحذاء ، وبقينا ننظر إليه فى حسرة ولهفة حتى احتاج محمد ذات مرة إلى اقتراض قرش من أحدنا ، وهنا بدت الفرصة سانحة ، وصمم صاحبنا على استغلالها فقال :

ـ إسمع يامحمد . . أنا مستعد أديك القرش ، ومش حاخده منك . . بس بشرط .

ـ إيه ؟ ـ

ـ تسلفنى جزمتك ألعب بيها شويه .

ـ لاياعم حد الله بينى وبينك .

ـ ياأخى متبقاش حمار .

ـ جلت لج . . يفتح الله .

ـ يعنى مش أحسن ماانت قالعها وراكنها وبتلعب حافى . . أنا مستعد كمان اديك جزمتى تلعب بيها . . . مبسوط ياعم ؟

وأخذ محمد يشاور عقله ، وبعد برهة قبل العرض .

وهكذا بدأ الإيجار ، وراج سوق الجزمة رواجاً شديداً إلى الحد الذى أصبحنا معه مضطرين إلى حجزها قبل موعد الإيجار ببضعة أيام . . . من فرط إقبال اللاعبين عليها .

وكانت نصيحة محمد التقليدية التى يسوقها إلينا قبل تسليم الحذاء :

ـ حاسب عليها . . . ماتشوطش جوى . . إوعى تجرى بيها .

وهكذا كان محمد يفترض دائماً فى مستأجر الحذاء . . استئجاره لمجرد التنزه وهذا هو ما كان يهون عليه الأمر .

ولقد استنفد محمد وقتذاك بحذائه معظم مصروفاتنا حتى اضطررنا فى نهاية الأمر إلى التشارك فى استئجاره . . فكنا نستأجره اثنين اثنين . . كل واحد يستعمل فردة . . على أن نتبادلهـــا فى الهاف تيم . . فيتاح لكل منا فرصة لبس الفردة اليمين — وهى الأهم — فى نصف الوقت .

وهكذا كان محمد عبد الجادر عبد الدليل تلميذاً . . وصاحب ملك . . يؤجره وقتما شاء ، وحيثما شاء .

تلك كانت أولى مزايا محمد ، وهى الحذاء الفوتبول . . أما الميزة الثانية ، فهى أنه كان . . حماراً ، إن صح أن هذه يمكن أن تسمى ميزة .

كان حماراً غشيما . . طيباً . . خفيف الدم ، ولقد ظل هكذا فى كل سنى دراسته ، وفى كل أطوار حياته ، وظللنا ننتقل سوياً من سنة إلى سنة ومن طور إلى آخر وهو نفس الحمار

ولقد عدا بنا الزمن ، حتى انتهت دراستنا . . فضربت بيننا الفرقة ، وبقيت فى عملى بالقاهرة ، وقذف به حظه السعيد إلى بعثة دراسية طويلة فى انجلترا .

ووقفت أودعه وأوصيه بنفسه خيراً من بنات التاميز فإذا هو يضحك ضحكته العالية المجلجلة ويقول :

ـ ماتخافش (بكسر الفاء) .. دانا محمد ولد عبدالجادر من فاو جبلى ! .

وافترقنا يومذاك ، وطالت به الغربة وامتدت الفرقة . حتى التقينا أخيراً بعد فراق خمس سنوات .

ووقفت أفحصه من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل فوجدته هو هو . . لم يعد عليه الزمن ، ولا بدل به شيئاً .

محمد ولد الشيخ عبدالجادر عبدالدليل ، من فاو الريسية مركز نجع حمادى . . نفس الحمار اللطيف خفيف الدم .

وإن كان الجو والمكان الذى التقينا به يجزم لى بأنه لم يعد حماراً غشيما .

كان لقاؤنا فى مكان ما . . فى ليلة حمراء ، ولم يكن يخطر لى ببال أن صاحبنا محمد يمكن أن يرتاد مثل هذا « المكان ما » فقد كان دائماً مخلوقاً خاماً . . خجولا ، هيابا .

قصدت « المكان ما » وصاحب لى ، وكانت قد مضت علينا مدة لم نرتده ولم نقض سهرتنا به وطرقنا الباب فمضت برهة قبل أن يفتح لنا ، وأخيراً فتح الخادم لنا وسألنا التفضل .

وترددت برهة إذ لم نجد فى الدار أثراً لصوت أو حركة . . بل بدت خالية تماماً وسألت الخادمة فى دهشة :

— أين . . اجماعه ؟

— تفضلا . . إنهم بالداخل . . مشغولين مع أحد الأصدقاء .

ودخلنا إلى حجرة الجلوس ، ففوجئنا بمنظر أذهلنا إذ وجدنا صاحبنا محمد عبدالجادر . . الغشيم ، التقى المصلى . قد تربع على الأرض ومن حوله التفت الثلة بأكملها وقد انهمكوا جميعاً فى الضحك والمزاح .

ولم أكد أراه حتى صحت به :

— محمد . . يخرب بيتك . . إيه اللى جابك هنا ؟ ! دانا فاكرك لسه فى انجلتره !

ونهض محمد وأخذنى بالحضن وهو يقهقه قهقهته العالية .

وعدت أقول له :

— إيه اللى جابك هنا . . دانا ماعنديش أى فكره إنك فى مصر .

— لازم مابتجراش الاجتماعيات فى الاهرام . . اللى فيها أخبار الناس الأكابر .

— وانت بقيت من الأكابر ؟

ـ أمال .

ـ جيت ميتا .

ـ آديلى شهر .

ـ شهر وانت فى مصر وانا ماعرفش ، وبعد كده أقابلك فين . . فى آخر حته يخطر على بالى إنى أشوفك فيها .

ـ ليه بجا ؟

ـ انت مش فاكر لما كنا نتحايل عليك تيجى معانا هنا ، فكنت تطاطى من الكسوف وتقول « استغفر الله العظيم » .

ـ كان زمان ودبر . . حد واخد منها حاده .

ـ والله زمان يامحمد يا ولد عبد الجادر ، وبتيجى هنا دائماً ؟

وأجابنى بكلمته الشهيرة :

ـ كَتير . . (بفتح الكاف) .

ـ يعنى بقيت صاحب بيت .

ـ وأبوها .

ـ يعنى مالناش هنا عيش معاك .

ـ ماخلاص بقى راحت عليكم .

والله خسروك بنات التلميز . . بعدما كنت خام ،

obeikandl.com

بس فالح تقول لى ، ماتخافش .. دانا محمد ولد عبدالجادر من فاو جبلى .. فاكر .

ـ فاكر .. فاكر جوى .. ماهى دى اللى جابت لى الكافيه .

ـ إزاى ؟

وبدأ محمد ولد عبد الجادر من فاو جبلى يقص علىّ « ازاى » ويروى مغامراته مع بنات التاميز ، قال :

ـ وصلت إلى مانشيستر بعد رحله طويلة بالبحر وبالقطار قضيت معظمها راقداً فى الفراش أشبه بالقتيل ، وحدث عن اللخمة واللبخة التى أصابتنى ولاحرج .. لقد ظللت مايقرب من شهر وأنا أشبه بالفأر الحائر فى مصيدة أو باليهودى التائه الضال .. حتى استقر بى المقام أخيراً بين عائلة انجليزية مكونة من أرملة وابنتها .

وكانت السيدة فى مقتبل العمر لاتكاد تتجاوز الأربعين على قسط كبير من ملاحة غير حائلة بل ظاهرة واضحة فى تقاطيع وجهها وفى استواء جسدها ، أما الإبنة فكانت فتاة لاتتجاوز العشرين بها شبه كبير من أمها مع فارق فى النضارة والصبا .

وكانت العائلة خلواً من الرجال .. أى أننى كنت

الرجل الوحيد المقيم بينهما ، وأقول لك الحق أننى كنت شديد التهيب مفرط الخجل فما تعوّدت — أنا الخام الغشيم الصعيدى المحافظ — أن أقيم وسط نساء غريبات ، ولذا فقد كنت أتسلل إلى البيت كالفأر . . لا يكاد واحد يشعر بوجودى . . أو مجيئى وترحالى . وما أذكر مرة أنى حاولت أن أرفع بصرى إلى إحداهما . . . بل كانت تكاد تسبقنى إليهما كلمة « ياساتر » التى تعودنا فى مصر أن نسبق بها مقدمنا على النساء .

كنت شديد الانطواء . . فقد كنت أجد فى انطوائى خير مهرب لى مما يمكن أن أقع فيه من زلل مقصود أو غير مقصود ، وكنت أشبه فى الدار بعابر سبيل لا آوى إليه إلا فى بهمة الليل . . حيث أدق الجرس فى هيبة وخشية فإذا مافتحت لى إحداهما أطرقت برأسى وتمتمت بضع كلمات على سبيل الاعتذار . . ثم أتسلل إلى حجرتى بلا حس ولا حركة .

فإذا ماضمتنى الغرفة أغلقت الباب شاعراً من وحدتى بشىء من الأمان ، وكانت الحجرة بسيطة لاتحتوى إلا على فراش ودولاب للملابس ومنضدة عليها مرآة ، ومقعدين قديمين . . .

وكان أكثر ماأقاسيه فى حجرتى المنعزلة . . هو البرد والحنين إلى الوطن . . كان البرد قاسياً إلى حد لم تجد معه أغطية ولابطاطين حتى اضطررت إلى رفع سجادة قديمة من الأرض ووضعها فوق الأغطية التى أتغطى بها فلما لم تجد نفعاً لجأت إلى كل ماأملك من ملابس فنقلتها من الدولاب ورصصتها فوق الواحد بعد الآخر حتى انتهى بى الأمر إلى أنى لا أنام إلا وفوق كوم هرمى من الملابس يكاد يصل إلى عنان السقف .

ولست أشك أنى كنت مستمراً فى النوم على هذه الطريقة طوال مدة البعثة ، ويعلم الله ماذا كان يمكن أن يصبح عليه جسدى بعد مر السنين عليه وهو تحت هذه الأثقال ، ولكن أغلب ظنى أنه كان سيطرق ويرق ويصبح جسداً رفيعاً منبسطاً .

أقول إنى كنت سأستمر على هذا النوم حتى حدث ماكشف أمرى فجأة . . فقد تأخرت فى النوم ذات ليلة عقب سهرة مع أحد الأصدقاء فى يوم عطلة ، وبينما أنا ملقى فى فراشى تحت كوم الملابس وأنا أفتح عينى فى كسل وتراخ إذ سمعت طرقاً على الباب ، وقبل أن أتمكن من النهوض وإخفاء معالم المنظر العجيب فتح الباب ورأيت الإبنة واقفة به

وقد استقر بصرها على كوم الأغطية والسجادة والملابس طبقات فوق طبقات .. ثم دارت ببصرها فى أنحاء الحجرة محاولة البحث عنى إذ لا شك أنه لم يخطر لها ببال أنى أرقد تحت هذا الكوم المرتفع .

ولم أحرك أنا ساكناً فقد خجلت من أن تكشف وجودى على هذا الحال وتمنيت أن تغلق الباب وتنصرف ، ولكن الشقية لم تذهب بل خطت إلى الأمام خطوة جعلتها فى داخل الحجرة وأخذت تعيد البحث فى مزيد من التأنى والدقة ، وأخيراً صاحت منادية :

ـ هاى .. مستر محمد .

وهنا لم يكن هناك بد من الإجابة فصحت من أسفل الكوم :

ـ هالو .. مس مارى .

وتهللت الفتاة ، وعادت تناديني بأعلى صوت :

ـ هالو .. أين أنت ؟

ـ أنا هنا .. فوق الفراش ، وتحت الأغطية .

وانحنت الفتاة ناظرة إلىّ فى ذهول صائحة :

ـ وماذا وضعك هنا ؟

ـ أنا .

ـ لماذا ؟

ـ لأنام .

ـ ومن الذى وضع هذا فوقك ؟

ـ أنا أيضاً .

ـ لماذا ؟

ـ لأقاوم البرد .

واندفعت الفتاة تقهقه . . ثم قالت أخيراً :

ـ إذا كنت ستداوم على هذا . . فقد تموت يوماً مختنقاً . . .

ـ وإذا لم أداوم عليه . . فسأموت قطعاً من البرد .

ـ ولكن لماذا لا تستعمل المدفأة ؟

ـ أية مدفأة ؟

ـ هذه المدفأة الغازية الموجودة أسفل المنضدة .

ـ عجباً ! ! أيوجد مدفأة أسفل المنضدة ؟

ـ بالطبع .

ـ لعنة الله علىّ . . إنى لم أكتشف وجودها . . ولو اكتشفت وجودها لما عرفت كيف تستعمل .

ـ ولماذا لم تسأل يامستر محمد ؟

ـ خشيت أن أزعجكم !

ـ إن هذا لايزعجنا . . إننا مفروض علينا أن نهيء لك الراحة .

وكانت هذه المناقشة تدور بيننا بسرعة وأنا مازلت فى مضجعى تحت هرم الملابس وأخيراً قالت الفتاة :

ـ أتستطيع النهوض ؟

ـ بالطبع ، ولكن أرجوك أن تبتعدى حتى لاتقع عليك الملابس .

وكان الأمر يحتاج إلى بعض الجهد فانكمشت ضاماً ركبتى إلى صدرى ثم فردتهما بشدة فارتفع الكوم ثم مال على جانبه منهاراً إلى الأرض .

وصاحت الفتاة معجبة :

ـ برافو !

وأردفت وهى تتجه إلى الباب :

ـ سأذهب لكى أحضر لك فنجاناً من الشاى وأعلمك استعمال المدفأة .

وبعد لحظات عادت الفتاة إلىّ بالشاى وجلست تعلمنى استعمال المدفأة التى لم يخطر لى على بال أنها موجودة .

وهكذا بدأ أول حديث لى مع الفتاة . . لقد اندهشت هى تعرض خدماتها ، ولكنى كنت مازلت مغرقاً فى أدبى

وتحفظى . . أحدثها دون أن أجسر على النظر إليها بل أخفض بصرى ، كما تعوّدت أن أفعل دائماً عندما أكون فى حضرة حريم غريبات . . .

وكنت أفضل أن أستمر على شهامتى الصعيدية وألا أستغل رقة الفتاة ولطفها ، وأن أريها أنى رجل رزين وقور .

لقد زادت ساعات وجودى فى الدار بناء على دعوتهما من آن لآخر للشاى أو للطعام ، ولكن كنت طوال تلك الساعات محتشما .

وكنت إذا ماجمعنى وإياهما مجلس أسبلت عينى وطأطأت رأسى فى حياء وخشية وأدب .

واستمر هذا شأنى ، حتى فوجئت بالفتاة تسألنى :

ـ ماذا بك يا مستر محمد ؟

ودهشت وهززت رأسى متسائلا :

ـ من حيث ؟

ـ عينيك . . هل بهما شىء ؟

ـ لا . . أبداً .

ـ إذاً لم لاتنظر إلىّ بهما ؟ هل بى شىء لايعجبك ؟

ـ حاشا لله . . وأستغفر الله ، إن بك كل شىء حسن .

— إذاً فما السبب فى أنك لا تنظر إلىّ ؟

— أدب . . لا أقل ولا أكثر .

— أدب ؟ !

واندفعت مقهقهة ثم أردفت :

— إنها قلة أدب .. من قال لك إن من الأدب ألا تنظر إلى فتاة أمامك ؟ ألست جميلة ؟ ألا أستحق النظر ؟

— بل تستحقين كل النظر . . إنى جد آسف . . لقد تعودنا أن نفعل هذا مع النساء فى بلادنا . . اعذرينى ، فأنا مؤدب من الشرق .

— إنك حمار من الشرق ، أرجوك أن تكف عن هذا الأدب .

ومن يومها بدأت أكف عن أدب النظر . . بالنسبة إلى الفتاة .

وبدأت الفتاة تغدق علىّ خدماتها وعطفها ، وتنظف الحجرة وترتبها وتتسكع بها ما شاء لها التسكع .

وأحسست من أفعالها هذه ، ومن تصرفها وتسكعها أنى يجب أن أفعل شيئاً ، وألا أمعن فى جمودى وحيائى وأدبى فأكون عند قولها « حمار من الشرق » .

أجل ! كان يجب أن أفعل « شيئاً » ، ولكن ما هو هذا

الشيء الذى يستطيع مثلى أن يفعله ؟

ماذا أقول لها ؟! إن المسألة تحتاج أولا إلى أن أكتب ما سوف أقول باللغة العربية ، ثم أترجمه إلى الإنجليزية . . ثم أحفظه عن ظهر قلب ، وألقيه عليها كالمحفوظات .

وبعد كل هذا التعب ، أكون مضحكا ، وحماراً أيضاً ؟

إذن فيجب أن أفعل شيئاً .

أقبلها مثلا ؟

لِمَ لا ؟ لأجرب معها . . وأرى ما سوف يكون .

وفعلا ، ظللت أترقب الفرصه حتى سنحت ، وفى خلوة لنا فى حجرتى ، وجدتها تنحنى لترتب الفراش . . فمددت يدى ، ولهفت قبلة ، ووقفت أنتظر النتيجة

ووجدتها تهز رأسها فى أسف ، وتقول ببساطة

— إن الرجل الإنجليزى لايفعل هذا .

وأحسست من قولها بلطمة شديدة . . وإهانة بالغة وتأنيباً مراً .

ولم يكن أمامى سوى الانسحاب ، والندم والتباعد ، فانسحبت وندمت وتباعدت .

ومرت الأيام والليالى ، وأنا منطو على نفسى عائد إلى سابق حيائى .

حتى كان ذات مساء وأنا عائد إلى حجرتى ، عابراً الممر ذى الضوء الخافت ماراً بحجرتها فى صمت وسكون أن أحسست بيدها تمتد من باب حجرتها ثم تمسك بى من قفاى وتجرنى إلى داخل حجرتها .

ووقفت أمامها وجهاً لوجه . وهى بقميص النوم . . ورأيتها تحملق فى وجهى غضبى ثائرة ، وتهمس ناهرة :

ـ ما بالك أيها الحمار العنيد ؟

وعادت تسأل بانفعال :

ـ ماذا فعلت لك حتى تمعن فى إعراضك الغبى ؟

ـ ألم تقولى لى عند ما قبلتك . . أن الرجل الانجليزى لا يفعل هذا ؟

ـ أجل ! إنه حقاً لا يفعل هذا . . ولكنى لم أقل لك إنى أحب ما يفعل الرجل الإنجليزى .

وتصالحنا . . وفعلت بها ما لا يفعل الرجل الإنجليزى ، وما لا تكرهه هى .

ومرت الأيام ، والعلاقات تزداد وثوقاً وتوطداً حتى أصبحت الفتاة تفرض لنفسها علىّ حقوقاً ، وتغار علىّ من الهواء ، ولا تكاد تتركنى أخرج وحدى .

وفى كل هذه المعمعة ، كانت أمها تقف على الحياد .

وبدأت أحس من الأمر بخطورة ، فقد باتت الفتاة تعتبرني خطيبها .

وتصورت ما يمكن أن يحدث لفاو جبلي . . وللشيخ عبد الجادر عبد الدليل أبي ، وللست عيوشه أمي ، لو حدث — لا قدر الله — أن تحرج الأمر ولم أستطع منه فكاكا ، وعدت إليهم وفي يدي « سنيورة » من بلاد برّه .

ولم يكن هناك علاج للمسألة أحسم من أن أسافر إلى مصر في إحدى العطلات الصيفية ثم أعود لابساً خاتم خطبة زاعماً أني قد خطبت حتى أقطع عليها كل تفكير في خطبة أو زواج .

وفعلا ذهبت وعدت وفي أصبعي خاتم الأمان .

ولم يخطر ببالي أن الخاتم سيكون له هذا الوقع المروع فقد ثارت الفتاة ، وتشنجت ، وبكت . . وظلت بضعة ليال ساهرة لا تهدأ ولا تنام .

كل هذا وأمها على الحياد لم تنبس بكلمة تأنيب ولا لوم .

حتى دخلت عليّ ذات ليلة ، وأنا أوشك أن آوي إلى الفراش .

وبدأت أجمع في ذهني مستندات الدفاع . . رداً على ما توشك أن تنزله بي من لوم وتأنيب ، وما توشك أن

تصفنى به من سفالة . ولؤم . وانحطاط . . لتغريرى بابنتها وخداعى لها .

ووقفت أمام الفراش أرتجف خجلا واضطراباً .

وأخذت الأم تقترب منى فى صمت ، وكلما زاد اقترابها وصمتها زادت خشيتى .

حتى وقفت بجوارى أمام الفراش ورفعت يديها . . لا لتضربنى ، بل لتتمطى ، وتستلقى على الفراش ، وتهمس إلىّ فى استدعاء واسترخاء :

ـ أطفىء النور .. وتعال . هيا ، أيها الحمار من الشرق .

ومنذ تلك الليلة .. أصبحت الأم تشاركنى الفراش . . وهى قريرة راضية ، مقتنعة بأن ليس فى عملها أية خيانة لابنتها ، بعد أن أصبحت خاطباً وفقدت كل أمل فىّ .

ولقد عرفت فى النهاية انى كنت حقاً حمار من الشرق لأنه كان علىّ أن أبدأ بالأم ، المجربة ، من أول الأمر .

عبد ربه الصرماتي

. ياعبد ربه ياصرماتي . . يامن لم تنجب الحياة أغبى ولا أحمق منك . . يامن تغرق في شبر ماء . . قاتلك الله من حمار أبله . . فيم كل هذا التفكير وهذا الحزن ؟ . ان النقود لا قيمة لها إلا إذا كانت وسيلة لجلب السعادة وطرد الشقاء . . أما اذا جلبت لنا الهم فلتذهب مع الشيطان !

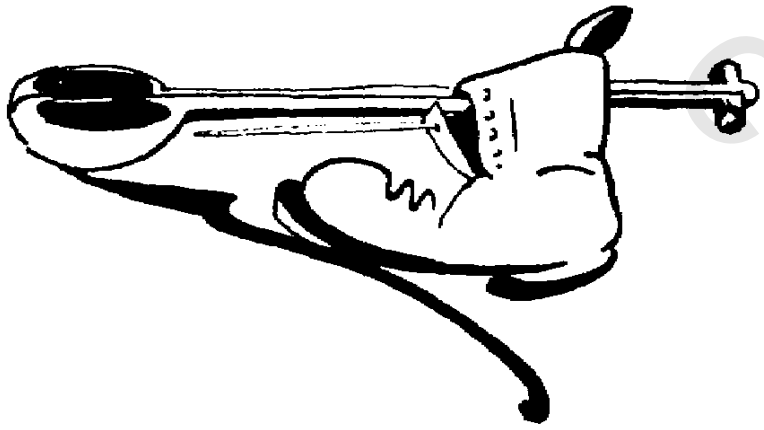

obeikandl.com

لم يكن

عبد ربه مجرد صرماتى ؟! بل كان موسيقياً فناناً . . وكانت له فى بلدته شهرة واسعة . . فما خلا منه مجمع أنس أو حفل طرب . . وما مرت به ليلة إلا وقد تكاثر حوله القوم فى مقهى البلدة يرجونه أن ينشدهم بعض المواويل على ربابته .

ولم يكن الرجل فى حاجة إلى رجاء . . فقد كان لا يستطيع أن يجلس صامتاً . . أو يسير وحيداً لا تصاحبه الربابة .

وكان بين ربابته وامرأته عداوة شديدة وخصام مستحكم . . فقد كانت أم أحمد (المرأة) تكره أم على (الربابة) كرهاً شديداً . . ولا ترى فيها إلا مضيعة للوقت ، وما زال القوم يذكرون تلك الزوبعة العاصفة التى لاقته بها المرأة يوم عاد إلى الدار أول مرة يحمل الربابة وينبئها أنه ابتاعها لُقطة . . من أحد الحوانيت فى البندر . . عند ذهابه لزيارة خالته نفيسه .

كانت أم أحمد امرأة جد . . ترى أن « صرماتى » يعنى « صرماتى » لا مغناوى ولا مزيكاتى . . وكانت ترى فى تعلق زوجها بالغناء والطرب والموسيقى . . سبباً فى انشغاله عن

عمله الأصلى . . وفى صرفه عما يجب أن ينهمك فيه من ترقيع « البراطيش » وإصلاح « الصرم » . . وسبباً فى « وكسته » أو خيبته . . وبقائه طول عمره « عتق » تعس فى هذه البلدة الخربة الخاوية .

وكانت أم أحمد — وهى قاهرية من بولاق — تتوق إلى العودة إلى مقرها الأصلى ولا تفتأ تنغص على زوجها عيشه . . ملحة عليه فى الرحيل إلى القاهرة . وهو يستمهلها حتى يفتح الله عليه وحتى يتجمع لديهما من المال ما يعينهما على السفر وعلى الاستقرار فى القاهرة .

وهكذا وجدت المرأة أن أملها فى الرحيل عن هذه البلدة الكريهة معلق بأن يفتح الله على زوجها فيجمع لها قدراً من المال .

ولكن كيف يفتح الله عليه . . ومن أين يأتيه قدر من المال . . وهو يضيع نصف وقته فى الغناء والسمر والطرب ؟ وزاد الطين بلة . . تلك الربابة التى اشتراها والتى صرف فيها مبلغاً لا شك فى أنه كان يمكن أن يجعل منه نواة لتغيير مجرى حياتها والرحيل عن هذه البلدة والاستقرار فى مصر .

ومن هنا كان كره المرأة للربابة والغناء . وأخذت المشاحنات تتزايد يوماً بعد يوم حتى بدأ صبر المرأة ينفد

وانتهى بها الأمر إلى أن تخرج من دارها ذات ليلة وقد تأخر عبد ربه عن موعد عودته متجهة إلى المقهى ثائرة هائجة . . وتهجم على زوجها فتخرجه من بين الجمع الذى أحاطوا به . . وتنشب أظافرها فى عنقه وتمسك بالربابة فتحطمها . . ثم تسوقه أمامها عائدة إلى الدار .

ومنذ ذلك الوقت انطوى عبد ربه على نفسه لا يكاد يغادر مقعده . . وبدت عليه علائم الهم والبؤس . . كأنما حرم من عزيز لديه . . يتناول « الصرم » من الزبائن كسير القلب حزين النفس . . والزبائن يقبلون عليه . . واجمين مطرقين . . كأنهم فى مأتم . .

وسرى الحزن من عبد ربه إلى أهل البلد جميعاً . . وأضحت مجامعهم صامتة ، بعد أن خلت من عبد ربه وربابته .

* * *

ومضت بضعة أسابيع والبلدة صامتة واجمة كأنما قد نزلت بها نازلة وأصابتها كارثة . . حتى كان ذات يوم حدثت معجزة اهتزت لها البلدة .

لقد هبط عليها محسن كريم . . أغدق عليها حسناته فأنقذها مما بها . . وترك أهلها حيارى مشدوهين ، يتساءلون من يكون هذا المحسن المجهول . . فلا يجدون جوابا .

استيقظ أهل البلدة ذات صباح فإذا بالبريد يحمل إليهم سيلا من الحسنات كان أولها بضعة عشر جنيهاً لإصلاح الجامع . . وبضعة أخرى لشراء أقمشة للأطفال . . وهكذا لم يترك المحسن ناحية إلا أغدق عليها من أفضاله . . حتى المقهى . . لم يحرم من مبلغ وفير لإصلاح حاله ولشراء بعض الكراسى . . والدكك .

وكان آخر هذه الأفضال المنهالة على أهل البلدة من المحسن المجهول أو أكثرها غرابة . . طرداً كبيراً مرسلا باسم « الصرماتى » .

وتكأكأ القوم حول الطرد ليعلموا ما يحويه . . ووقفت أم أحمد لاهثة الأنفـــاس . . مشدوهة . . حيرى . . تحملق فى الصندوق وقد أخذ زوجها فى فتحه لرؤية ما جاء به .

ونزع عبد ربه غطاء الصندوق برفق وأخذ يزيل طبقة القش التى علت سطحه ثم مد يده وأخرج ما به .

وندت عن القوم صيحة دهش . . وفغرت أم أحمد فاها وهى تحملق فى محتويات الطرد . . فقد كان لا يزيد عن « ربابة » .

ربابة ؟ ! هذه أمنية للبلدة كلها قد تحققت ولا شك .

وأمسك عبد ربه الربابة يفحصها فى إعجاب ولهفة . . وقد علت وجهه أبلغ علامات الرضا .

وهزت أم أحمد رأسها فى خيبة شديدة . . وأصابتها الحيرة فلم تعرف كيف تتصرف إزاء هذا الخصم الجديد الذى أرسله لها المحسن الأحمق المجهول .

وأخذ القوم يتساءلون عمن يكون هذا المحسن العجيب الذى غمرهم بفيض من إحسانه وعطفه . . ! ! وفجأة صاح الشيخ على . . خادم الجامع وإمام البلدة :

ـ لقد وجدته .

وبهت القوم وتساءلوا :

ـ من . . ! ! ؟ من هو . . ؟

وعاد الشيخ على يصيح :

ـ عبد ربه . . ولا أحد غيره . . إنه لا شك السبب فى هذه النعم التى أغدقت علينا .

وهز القوم رءوسهم فى دهش وحملق عبد ربه بعينيه وأشار إلى صدره متسائلا فى عجب :

ـ أنا ؟ ! !

ـ نعم أنت . . فلا شك أن أحد الأثرياء من أصحاب الأراضى المجاورة قد سمع نبأ ربابتك وكيف حل بنا الحزن

بعد أن حطمتها امرأتك . . وربما سمعك تغنى ذات مرة فأطربته . . وساءه أن يخفت صوتك وتصمت ربابتك ورغب فى أن يعوضنا عما أصابنا من غم . . فوهبنا ما وهب وأغدق علينا من نعمه . . وليس أدل على صحة قولى من أنه خصك أنت بالذات بهذه الربابة .

ولم يكد الشيخ على ينتهى من قوله حتى أمن القوم عليه وأقبلوا على عبد ربه يشدون على يديه ويوسعونه عناقاً وتقبيلا . . وأبدى الشيخ على اقتراحاً ، أنه يجب عليهم اعترافاً بفضل عبد ربه أن يجعلوا له أجراً شهرياً نظير غنائه وعزفه على الربابة .

ووافق القوم بالإجماع . . قائلين إن عبد ربه يستحق كل خير . . وإن البلد قد خيم عليه الشقاء والتعاسة منذ أن خفت صوته وصمتت ربابته .

وانفرجت أسارير أم أحمد . . وأحست لأول مرة فى حياتها . . باحترام لزوجها ولربابته . . فقد أصبح الغناء والعزف عملا رسمياً . . وأضحت الربابة مورد رزق بعد أن كانت مضيعة للوقت . . ومدت يدها فتناولت الربابة برفق قائلة له :

— حاسب عليها لتتكسر .

obeikandl.com

وهكذا عاود عبد ربه غناءه وعزفه على الربابة . . وعادت إليه بشاشته . . وانقشعت عن البلدة سحب الغم التى خيمت عليها . وعاد القوم إلى سابق فرحهم ومرحهم . . وفكاهتهم ومجونهم .

ومرت الأيام . . وسر المحسن المجهول ما زال فى طى الخفاء لم يستطع مخلوق أن يتوصل إلى كشفه .

وفى ذات يوم ذهب الشيخ على إلى دكان عبد ربه الصرماتى . . وتربع على مقعد أمامه وناوله حذاءه ليجرى له فيه بعض الترقيع والترميم . وجرى بينهما الحديث . فسأل الشيخ على صاحبه عن امرأته وكيف أصبحت . وأجاب عبد ربه بلهجة راضية :

ـ الحمد لله . .

ـ أظنها كفت عن تنغيص عيشك . . ومنعك عن الغناء والعزف ؟

ـ أجل لقد تبدل حالها ورقت مشاعرها وأصبحت هى نفسها تطلب منى الغناء والعزف .

ـ هذا شىء واضح . . حتى ليخيل لى أنها قد تغيرت تماماً . . لقد أصبحت امرأة كاملة . . لولا ....

ثم هز الشيخ على رأسه فى أسف . فسأله عبد ربه فى دهش :

ـ لولا ماذا ؟ . .

ولم يجب الشيخ على . بل استمر يهز رأسه . فعاد عبد ربه يستحثه :

ـ تكلم يا شيخ على . . لولا ماذا ؟

ـ لولا أمر يبعث فى نفسى التساؤل والحيرة . . وهو نظراتها إلىّ .

ودهش عبد ربه ورفع حاجبيه متسائلا :

ـ مالها نظراتها إليك ؟

ـ إنها تنظر إلىّ نظرات غريبة مريبة . . نظرات مليئة بالحذر والشك . . كأنها تكاد تجزم بأنى أبله أو مجنون ؟

واندفع عبد ربه فى قهقهة عالية . . وأخذ يهتز من فرط الضحك ، وبدأ الشيخ يتملكه الغضب وصاح فى صاحبه :

ـ ما يضحكك من قولى ؟

وكف عبد ربه عن الضحك واستطاع أن يتمالك نفسه وقال فى شبه اعتذار :

ـ الواقع أنها معذورة يا شيخ على .

وازداد غضب الشيخ على وعاد يهدر صائحاً :

ـ معذورة !! .. يا ابن الحرام .. يعنى أنا راجل مجنون ؟

ـ العفو يا شيخ على .. لا أقصد هذا .. لو عرفت السبب لأدركت أنها حقاً معذورة .

وصمت عبد ربه برهة ، ثم أخذ يروى لصاحبه السبب قائلا :

ـ هذا بينى وبينك أرجو منك ألا تبوح به لإنسان ، مفهوم ؟

ـ مفهوم .

ـ أنت تعرف أننى فى كل عام أذهب إلى البندر لزيارة خالتى نفيسة .. والواقع أنى كنت أؤدى هذه الزيارات مكرهاً لأنى لا أكره شيئاً كمغادرتى للبيت .. ولكنى كنت أرى فى الزيارة واجباً علىّ لا بد من تأديته .. فقد كانت خالتى هذه امرأة وحيدة ليس لها من الأقارب سواى . وكانت زيارتى تسبب لها سعادة كبيرة وتشعرها بأنها ما زالت لها صلة بهذا العالم وأن هناك من يسأل عنها .

وذهبت آخر مرة لزيارتها منذ بضعة أشهر ـ وأذكر أنه كان يوم جمعة ـ وقد استيقظت قبيل الفجر فتوضأت

وصليت الصبح حاضراً . . ثم توكلت على الله وسرت إلى البندر .

وكنت طوال الطريق أفكر فى حلم رأيته . . وأنت تعرف أن أحلامى لا تخيب أبداً . . ولذا كنت شديد الوجوم ، منقبض الصدر .

رأيت فى الحلم أنى سائر على شاطىء بحر فى ليلة معتمة ، وفيما أنا سائر خيل إلىّ أنى أسمع أصواتاً جميلة وأنغاماً حلوة كأنها آتية من وراء البحر ، وتوقفت أنصت مرهفاً أذنى محاولا تجميع النغمات . . ولكن مصدرها كان بعيداً وكان معظمها يتبدد مع النسيم فلا يصل إلىّ منها إلا أجزاء متقطعة كأنها رائحة الشواء . . تحرك الشهية ولا تغنى من جوع .

واشتد بى الحنين إلى النغم وأنا واقف مرهف الأذنين حتى وجدتنى أجرى فى المياه متجهاً على غير إرادة إلى مصدر النغم .

وظللت أسبح وأسبح ، والنغم يزداد اقتراباً ، وتزداد معالمه وضوحاً . . ولم أشك وأنا أقترب منه أن مصدره ربابة تجرى عليها يد عازف ساحر . . وبعد طول جهد لاحت لى ربوة مشرقة سابحة فى ضوء القمر . .

فأسرعت فى السباحة كى أبلغها . موقناً أن الغم لابد وأن يكون صادراً منها .. وأخيراً وبعد أن كدت أبلغها سمعت صرخة مفاجئة وصوت استغاثة يشق الفضاء ، وتلفت إلى مصدر الصرخة فإذا بمركب مقلوبة وغريق يحاول التشبث بها .. وترددت برهة فقد كان جهدى بالغاً نهايته ، وكان طول السير فى الماء قد استنفذ كل قواى .. وكان ما تبقى لى من قوى لا يكاد يوصلنى إلا إلى الربوة المشرقة .. حتى لقد ساورنى شك فى أنى مشرف على الهلاك إن لم أسرع إلى الربوة .

ولم يطل بى التردد حتى عزمت على الاتجاه إلى الغريق ، فإما أن أنقذه أو نهلك معاً . . وأخذت أضرب الماء بيأس حتى كلت قواى وأنا أقترب منه . . ولدهشى الشديد تبينت أنه خالتى نفيسه .

وصحت بها مطمئناً أنى عبد ربه ، وسألتها أن تتمالك حتى أصل إليها . . وظللت أجاهد فى السير حتى بلغتها وأمسكت بيدها وحاولت العودة بها ولكنها أنبأتنى أنها ستبقى ، وأنه لا فائدة من عودتها معى لأنها ذاهبة ذاهبة . . ثم بدأت تغوص فى الماء . . وصحت بها أن تتمالك وأنى سأنقذها وأعود بها ، ولكنها مدت يدها وخلعت منديلا على رأسها وأعطته لى قائلة :

ـ خذ هذا المنديل فإنه سيساعدك فى بلوغ الربوة .

واختفت فى جوف الماء ، ولم أجد بداً من العودة وحيداً ، ولكنى كنت أشك كثيراً فى إمكانى العودة فقد كانت قواى قد خارت تماماً . . وأمسكت بطرف المنديل فإذا بالريح تنشره ، وإذا به يكبر ويتسع حتى أضحى كأنه قلع مركب ، وتشبثت به .. فأخذت الريح تدفعنى وتدفعه .. وفى غمضة عين بلغت الربوة المنشودة . . وجلست أنعم بالنغم العجيب .

كان حلماً عجيباً . . كان لا شك يعنى شيئاً . . وكنت أخشى كثيراً من هذا الشىء الذى يعنيه . . ألا وهو ذهاب خالتى وفشلى فى إنقاذها من الغرق .

وكان الوهم يحملنى هماً ثقيلا . . فقد خيل إلىّ أنى لن أصل إلى الخالة إلا وقد ذهبت إلى جوار ربها .

ولكنى استعنت بالله على طرد هذا الوهم ، ونفضت عن نفسى آثار ذلك الهم ، وقلت : إن كل ما أظنه ليس سوى أضغاث أحلام . . واتجهت قبل أن أذهب إلى المحطة إلى دكان سيد العطار لأبتاع لخالتى كيس الدقة المصنوعة من السمسم الذى تعودت أن أحمله لها فى كل زيارة .

وتذكرت بعد أن ابتعت الدُّقَّة أنها قد أوصتنى بشراء

رطل من الحناء وبعض اللبان الذكر . . ولم يكن معى من النقود إلا ما كنت أحاول ادخاره خفية من زوجتى لشراء ربابة جديدة . . ولكنى مع ذلك لم أتردد فى أن أبتاع للخالة العزيزة ما طلبت بالنقود المتوفرة قائلا لنفسى : إنى أستطيع أن أدخر مبلغاً آخر وأن أؤجل شراء الربابة بعض الوقت . . ولم يكن فى إقدامى على هذا العمل أى إحساس بتضحية . . بل كان مجرد استبدال متعة بمتعة . . فأنا دائماً أوازن فى حياتى بين المتع وأختار المتعة الأبقى والأفضل . . وفى هذه الحالة اخترت المتعة المستمدة من إسعاد شخص قد حرم إلا من السعادة التى أستطيع أن أهبه إياها . . وهى متعة لو تعلم تفوق كل متعة .

وهكذا سرت إلى المحطة حاملا فى يدى السبت الملىء بمطالب الخالة من دُقَّه إلى حِنَّاء إلى لبان . . . الخ . أو على الأصح هديتى السنوية .

ولا أكذبك القول أنى كنت أحمل الهدايا . . وبنفسى كثير من الشك أنى لن أجد المهدى إليها ، ولذا لا تسل عن فرحتى عند ما وصلت فوجدتها سليمة معافية .

ولقيتنى بالترحاب . . وضمتنى إلى صدرها فى حنان ورفق وقالت :

ـ طول عمرك . . وانت ولد طيب . . إن الله لن يخذلك قط .

كانت تعتبرنى ولداً حتى ذلك الوقت .

وجهزت لى الغداء . . وجلست تطعمنى . . كأننى كما تعتبرنى مجرد ولد .

وبعد الطعام . . ماتت .

أجل . . ماتت فجأة . . هكذا كما أروى . . بدون أى سابق إنذار .

ومع ذلك لا أظن الموت يحتاج إلى إنذار ، لقد كانت تجلس على شلتة ، وبيدها فنجان القهوة ، فوجدت رأسها يميل ، وجفنيها يتثاقلان ، ويدها تهبط بفنجان القهوة على حجرها .

وأصابنى من مرآها رجفة شديدة . . ولكنى وثبت تجاهها وحملت فنجان القهوة المسكوب على ساقيها ثم أرقدتها على الشلتة كى تستريح ، وقلت لها فى جزع :

ـ ما بك ؟ !

فلم تجب ، وأخذت رأسها تتمايل متحركة يمنة ويسرة . ثم فتحت عينها بعد لحظة ، وتمتمت بصوت متقطع :

ـ ورقة اليانصيب . . إنها فى درج الدولاب تحت

العلبة الصفيح . . لقد ابتعتها بكل ما كنت أملك . . لقد كان مبلغاً ضئيلا لا يستحق أن أهبه لك . . ولكن فكرت أنى أستطيع أن أبتاع لك هذه الورقة . . وأن أهب لك معها بعض دعوات خالصة بالربح . . فإذا استجاب الله دعواتى . . وهيأ لها الربح . . فإنى قد وهبتك بذلك مبلغاً طيباً . . إنك ولد طيب . . والله لن يخذلك .

ولم تمض بضع دقائق حتى أسلمت الروح . . ولم تمض بضع ساعات أخرى حتى ووريت التراب وانتهى كل ما كان من أمرها إلا أمراً واحداً هو ورقة يانصيب عثرت عليها تحت العلبة الصفيح مكتوبة باسمى .

أتعرف ورقة يانصيب المواساة . . إنها ورقة كاملة لا نصف ولا ربع ولا عشر . . إذا ربحت نمرتها فمعناها أنى ربحت بضع عشرات آلاف من الجنيهات .

وأحسست بالدموع تنهمر من عينى . . لا لأنى أتوقع ربحاً — فأنت تعرف أنى لا آمل كثيراً فى مثل هذه الأشياء — ولكن فرحى كان إحساساً منى بجميل تلك المرأة الراحلة التى ودت أن تعوضنى عن اهتمامى بها وزيارتى لها . . فابتاعت ورقة اليانصيب بكل ما تملك . راجية أن يكون لى بعض الحظ . . فتربح النمرة .

ووضعت الورقة فى جيبي فى سكون . ومضيت أتجول فى الطرقات حتى استقر بى الأمر على إحدى المقاهى وبعد برهة مر بى صبي يحمل فى يده بضع أوراق يانصيب . . وكشوفاً بها نتائج السحب .

وتملكنى شيء من الارتباك .. ثم ناديت الصبي بصوت خافت وأخرجت الورقة من جيبي وبدأت أفحص الكشوف .

وبالطبع لم تكن نمرتها تطابق البريمو . . فتجاوزت عنها . . وبدأت أهبط بعينى إلى بقية النمر الرابحة التى فى الكشف .

وفجأة رأيت الأرقام تتراقص أمام عينى . . ثم تتشابك وتنقلب رأساً على عقب . . فشددت من الشيشة التى أمامى نَفَساً طويلا استعنت به على تهدئة نفسى . . وعدت أحملق فى الكشف مرة أخرى .

لقد وجدتها . . هى بعينها . . نفس الأرقام بلا جدال ولا نقاش .

لقد ربحت الورقة . . ولكن النمرة . . ليست الأولى ، ولا الثانية ، ولا الثالثة . . ولكنها مع ذلك ربحت مبلغاً محترماً بالنسبة لأى إنسان محترم . . أما بالنسبة لى . . فقد كان محترما جداً .

وبدا لى أن أقوم فأرقص عشرة بلدى فى وسط المقهى . . وأن أطلب من الحاضرين أن يطلبوا ما يشاءون على حسابى وأعلنهم أن عبد ربه صرماتى سندويس قد أصبح ذا مال ، وأنى رغم مظهرى رجل غنى .

وهممت فعلا . . بالنهوض والصياح . . ولكنى فجأة تذكرت أمراً بدد فى نفسى كل ما بها من فرح وغبطة ، وهبط علىّ كحمل أثقل كاهلى . . وأنقض ظهرى . . ووجدت أنى قد استرخيت على مقعدى منهكاً لا أستطيع نهوضاً ولا صياحا .

تذكرت ما سيحدث عندما أذهب بالنقود إلى البلدة ، وأنبىء بها أم أحمد . . ماذا يمكن أن تقول لى ؟ !

ستهتف بى صائحة : « ربنا تاب علينا من بلد السوء . . يالله على مصر . . تفتح دكان جزماتى فى بولاق . . وتبقى بنى آدم » .

أنا لا أكره بولاق ، ولا أكره مصر . . ولكنى فقط لا أعرف أحداً هناك ، ولا يعرفنى أحد . . إنى فى بلدتنا كل شىء . . أما هناك فسأكون لا شىء . . سأكون قشة فى عباب متلاطم الأمواج . . إنى هنا صرماتى البلدة . . بلاشريك ولا منازع . . وإنى مغنيها ، ومطربها . . ومحدثها ،

ومضحكها . . إنى البلدة ، والبلدة أنا .

ترى كيف أكون فى بولاق ؟!

وأحسست بقشعريرة تسرى فى جسدى . ونهضت من مكانى متثاقلا ، وأخذت أجوب الطرقات على غير هدى مطرق الرأس ، مهموم القلب . . وقد أخذت الذكريات تتزاحم فى رأسى وتغلى فيه كأنه مرجل . ذكرت بلدتنا العزيزة . وأهلها الكرام .. تذكرت غناءنا ومرحنا وضحكنا وطربنا .

تذكرت شاطىء الترعة صباحا وقد أقبلت عليه أم السعد والسيدة وفرح يحملن البلاليص على رءوسهن ، ويتهادين فى خطاهن ، وقد افترت ثغورهن ، وشاعت فى أساريرهن السعادة والهناء .

تذكرت صندوقى وشاكوشى ومقعدى و « براطيشى » و « صرمى » و « جردلى » . تذكرت الجامع على شاطىء النيل وصلاتنا جماعة ، تذكرت كل شىء ووجدت الدمع يهمى من عينى مدرارا ، إنى أحب بلدى بكل ما فيه ولا أرضى به بديلا و « لو شغلت بالخلد عنه . نازعتنى إليه فى الخلد نفسى » .

وفجأة توقفت فى مكانى ودون أن أشعر وجدتنى أخاطب نفسى قائلا :

« يا عبد ربه يا صرماتى . يا من لم تنجب الحياة أغبى ولا أحمق منك . يا من تغرق فى شبر ماء . قاتلك الله من حمار أبله . فيم كل هذا التفكير وهذا الحزن ؟ هل نسيت أن المرحومة خالتك لم تهب ما وهبت إلا لغرض واحد هو إسعادك ؟ أنها لم تترك لك ورقة اليانصيب إلا لأملها فى أن تربح . ولم تأمل فى أن تربح إلا لرغبتها فى أن تجلب لك الهناء والسعادة . فهل حققت غرضها ؟ كلا والله . لقد أغرقت نفسك فى الهموم . إن النقود لا قيمة لها إلا إذا كانت وسيلة لجلب السعادة وطرد الشقاء . . أما إذا جلبت لنا الهم فلتذهب مع الشيطان . أنا بغيرها أنعم بالا . هيا أيها الأحمق . اسعد نفسك وحقق غرض خالتك ونفذ وصيتها » .

وانطلقت أقهقه . . وأخذت أعدو فى الطريق راقصاً والناس ينظرون إلىّ نظرتهم إلى ذى جنة . . ثم أمضيت يومين فى البندر وأنا منهمك فى جلائل الأعمال . . وفعلت أقصى ما يمكن أن يسعدنى . . ثم عدت إلى البلدة . . خاوى الوفاض . . وبعد بضعة أيام . . وصلت البلدة عطايا المحسن المجهول ، وأقسم لك أنى ما كنت أستطيع أن أكون أكثر هناء أو أنعم بالا .

ثم توقف عن الحديث .. كأنه أتم القصة .

وصاح الشيخ على فاغراً فاه فى دهشة شديدة :

— إذن فهو أنت ؟

وهز عبد ربه رأسه وأمن بقوله :

— نعم .

ومضت برهة والشيخ على مطرق برأسه من فرط الدهش .. وفجأة رفع رأسه متسائلا :

— ولكنك لم تقل لى رغم كل هذا لِمَ تظننى امرأتك مجنوناً ؟

— لأنها تعتقد أنك أنت المحسن المجهول .

obeikandl.com

الحاج قطّـة

الحاج قطة . . هذا الذى يقيم صاحبنا في ضريحه . . والذى تجرى حوادث قصتنا تحت قبته . . هو أحد أولياء الله الوهميين من ذوي البركات والكرامات الذي يزعم أهل القرية أنه كان يتقمص فى حياته جسد قطة ، فيمر على أهل القرية ليسدى إليهم النصح ويمد لهم يد المعونة ، وأنه كان يتحدث وهو في جسد القطة كما نتحدث نحن الآدميين .

obeikandl.com

الساعة الرابعة صباحاً . . . وقد تمدد الشيخ مبارك في فراشه . وانطلقت أنفاسه في شخير خافت . وانحسر جلبابه الدمور المخطط عن ساقين كالأقلام البسط ، سمراء عجفاء ملساء جرداء . وقدمين معروقتين مشققتين وركبتين نفرت منهما العظام حتى كادت تشق الجلد الواهن الرقيق .

ويبدو الجسد بعد ذلك . وقد أخذ الصدر فيه يعلو ويهبط . ومع كل حركة منه يسمع « تزييق » كأنه نعل حذاء جديد يهبط إلى الأرض لأول مرة . وتتدلى يداه طويلتين مسترخيتين من فتحتي كم الجلباب الواسع ثم يبرز العنق من فتحة الصدر . . وقد وصلته بعظام الترقوة والكتفين عدة عروق بارزة نافرة أشبه بحزمة من الأنابيب .

أما الوجه فلا يمكن تمييز سيماه إلا من بعد . . أما إذا حققنا فيه من قرب فنجده أشبه بقطعة أرض مستوية . . مليئة بالهضاب والوهاد والأخاديد والجروف ، وقد تناثرت فوق تجاعيد ذقنه الشعيرات البيضاء ، وتهدل الشارب على فجوة الفم ، وبدت من فوقه هضاب الأنف

مفرطحة منبعجة قد أطلت الشعيرات من فتحاتها وتناثرت المسام على سطحها .

وتبدأ أولى بشائر اليقظة باهتزاز فى الجفنين وارتعاش فى الحاجبين . . ثم يمد أصابعه الطويلة فيحك بجوتى عينيه . ويفتر فاه على أشده فى تثاؤب حاد تتقلص معه عضلات بطنه ويمد ذراعيه مشدودتين متمطياً بكل مايملك من قوة . ثم يعود جسده إلى الاسترخاء ، وتمضى برهة يبدو فيها الرجل كأنه قد عاد إلى نومه مرة أخرى . . حتى نراه فجأة قد نهض بنصفه الأعلى . . ثم أدلى ساقيه من الفراش ، وتنحنح وسعل وبصق . . ثم صاح بصوت متحشرج :

— عويس .

وتذهب « عويس » الأولى مع الريح . . فيكرر الرجل النداء مرة أخرى بصوت أشد :

— ياواد ياعويس .

وتذهب الثانية كما ذهبت الأولى ، ويتكرر النداء مرة ثالثة ورابعة ، وفى الخامسة يبدأ عويس فى التقلب والتململ ويزفر زفرة شديدة . . ثم يعود إلى سباته .

ويطلق الشيخ مبارك السادسة . . مصحوبة ببعض ألفاظ السباب والنهر والزجر فيظهر مفعولها الحاسم

فى إيقاظ عويس . . فيجلس القرفصاء على فراشه المكون من قطعة من الحصير فرشت على الأرض فى الطرقة الضيقة الكائنة أمام حجرة الشيخ مبارك .

ويبدو عويس وقد تكور فى جلسته مرتدياً فانلة سمراء وسروالا من الدمور واسعاً فضفاضاً . . تدلت تكته الطويلة ذات الشرابة على الأرض ، ونتأمل « الواد عويس » فنجد أن خير ما يوصف به أنه « جته » أو « شحط » أو « فحل » عريض المنكبين . . متين البنيان قوى العضل . . فارع الطول . . أسرفت الطبيعة فى خلقه . . فوضعت فيه من مواد البناء الآدمى مايكفى لعمل اثنين . . بالراحة !

ويرفع عويس رأسه من بين ركبتيه . . فيبدو لنا وجهه على ضوء مصباح الغاز الذى تضطرب ذبالته على الرف ، وجه فلاح نموذجى عريض الصدغين . . كبير التقاطيع ، خشن المنظر . . بادى الطيبة .

وينطلق النداء العاشر من حنجرة الشيخ مبارك . . فيأخذ عويس فى هرش جسده وحك رأسه . . ثم ينهض متثاقلا ، ويتحرك حركة لا إرادية . . فإنه لم يستيقظ بعد ، وتمتد يده إلى صفيحة مياه فى ركن الطرقة فيصب منها فى إبريق من الصاج ثم يتناول قصعة متسعة فارغة ويتحرك

بيطء متجهاً إلى حيث يجلس الشيخ مبارك . ويقف أمامه .

كل هذا دون أن يجيب على ندائه . . . أو ينبس ببنت شفة .

ويهبط الشيخ مبارك من فوق فراشه الخشبي فيجلس القرفصاء على الأرض . ويبدأ الوضوء . وبعد دقائق نراه قد اتخذ مكانه . . فى زاوية الحاج « قطة » يؤم المصلين فى صلاة الفجر .

هذا هو أول أعمال الشيخ مبارك . . أو سيدنا . كما تعود أهل قرية «سلنت» أن ينادوه . وكان الرجل يحس فى قرارة نفسه أنه سيدهم فعلا . . فقد كان ذا شخصية مسيطرة ، وكان يتمتع بقدر من الخبث يهيء له التحكم فيمن حوله من السذج البسطاء ، والسيطرة على عقولهم .

وكان الشيخ مبارك يمثل فى القرية السلطة الدينية والروحية والعلمية والأدبية . فقد كان — بمسبحته وتمتمته وتعاويذه وصلواته — إمام القرية ومقرئها وملجأ أهلها فى الكوارث والنوازل ، وكان — بعصاه ومنظاره وكتبه الصفراء — معلم القرية ومرشدها وواعظها وناظر كتابها .

وكان الرجل يباشر كل أعماله تلك ، من صلاة وتدريس ووعظ وإرشاد ونوم وأكل واستقبال ضيوف

وشتيمة عويس . . فى مكان واحد . هو مقرّه المختار . . زاوية الحاج قطة .

والحاج قطه هذا الذى يقيم صاحبنا فى ضريحه ، والذى تجرى حوادث قصتنا تحت قبته . . هو أحد أولياء الله الوهميين من ذوى البركات والكرامات الذى يزعم أهل القرية أنه كان يتقمص فى حياته جسد قطة . فيمر على أهل القرية ليسدى إليهم النصح ويمد لهم يد المعونة وأنه كان يتحدث وهو فى جسد القطة كما نتحدث نحن الآدميين ، وأنه كان إذا مرض أحد أهل القرية يتولى علاجه ، ويقوم عنه بحرث أرضه وريها وبكل ما كان يؤديه فى صحته .

هذا هو بعض مايتحدث به أهل القرية . وهناك غير ذلك الكثير من الكرامات الخرافية التى ينسبونها إلى ولى الله الشيخ قطة المبجل .

ويعتبر الشيخ مبارك خليفة ولىّ الله بين أهل القرية ويزعمون فيما بينهم أن الشيخ قطة لايفتأ يهبط إليه بين آونة وأخرى . . ليزوده بالبركات والنفحات الطيبات .

ولايكاد الشيخ مبارك ينتهى من تأدية أول أعماله ، وهى صلاة الفجر ، بما يتبعها من تسبيح وتمتمة وقراءة

أوراد ، حتى ينطلق من حنجرته النداء المعتاد :

— عويس .

ويصل النداء إلى أذنى عويس العريضتين كأذنى حمار ويكون الرجل منهمكاً فى تنظيف «التعريشة» الكائنة خارج الزاوية ورش أرضها بالمياه وريّ العنبة التى تتسلق قوائمها وتمتد على سقفها ، وتمثل التعريشة جناح العلم فى منشأة الشيخ قطة . . أى كتاب القرية ، ولايزيد أثاثها على بعض قطع من الحصير فرشت على الأرض ودكة خشبية وضع بجوارها مقرعة وزير اتخذ مكانه فى أحد أركان التعريشة .

ويتحرك عويس فى صمت متجهاً إلى الطرقة الفاصلة بين ضريح الشيخ قطة وفراش الشيخ مبارك الذى يتخذه هو مرقداً له . . فيجلس القرفصاء أمام وابور غاز ويأخذ فى إعطائه بضعة أنفاس ثم يتناول المصباح الغازى فيشعل ذبالته ، وينتظر برهة حتى يسخن ثم يضع فوقه براداً أسود بقاعه بقايا شاى يصب عليه الماء من الكوز الكائن بجوار الزير ، ثم يحمله وكوباً صغيراً إلى الشيخ مبارك .

وأخذ الشيخ مبارك فى احتساء الشاى الأسود فى صمت وإطراق وجلس عويس على مقربة منه يحتسى نصيبه من كوب آخر .

وفجأة قال الشيخ مبارك فى صوت عميق :

— ياعويس . . يبدو لى أن أجلى قد قرب .

ونظر إليه عويس فى فزع وقال مأخوذاً :

— لاتقل هذا الكلام ياسيدنا الشيخ . . ربنا يعطيك طول العمر .

وهزّ الشيخ مبارك رأسه ببطء وقال فى إصرار :

— أنا أعرف ما أقول . . إن أحلامى لاتخطىء قط ، لقد زارنى فى المنام الحاج قطة وكان يرتدى جلباباً أبيض ، ويشع من عينيه بريق خاطف وقال لى ياشيخ مبارك إنى فى حاجة إليك . . فقلت إنى خادمك وطوع أمرك . فقال إنى أريدك أن تصعد معى . . فسألته :

— متى ؟

— الآن . . هل لديك مانع ؟

وهممت أن أجيبه « كلا » ولكنى تذكرتك ، وقلت لنفسى إنه لايجب أن أتركك هكذا فجأة ، وإن أقل واجبات اللياقة والذوق تقتضينى أن أنبئك عند الرحيل بأننى راحل . ولايجب أن أتركك بعد هذه العشرة الطويلة دون أن أودّعك ، ودون أن أزوّدك بالنصائح والوصايا ، ثم إن هناك أمراً أجل من هذا وأخطر شأناً ، وهو أننى

يجب ألا أرحل قبل أن أترك خليفة من بعدى . . كما تركنى الشيخ قطة خليفة من بعده . وعلى ذلك فقد قررت أن أطلب من الشيخ قطة أن يمهلنى قليلا وقلت له :

ـــ اعطنى مهلة ياشيخ قطة . . حتى أبحث لى عن خليفة . قبل أن أرحل معك .

ـــ ومن تظنه يصلح لخلافتك ؟

وبحثت فى ذهنى عن إنسان فى القرية يصلح لخلافتى . وأخذت أستعرض أهل القرية واحداً واحداً .

الشيخ زينهم ؟ منافق . . كذاب أشر . . الشيخ عتريس ؟ شر منه . . الشيخ فضل ؟ أحمق مأفون . . على أبو المعاطى ؟ زير نساء .

وهكذا أخذت أعجم عودهم فلم أجد منهم واحداً يصلح لخلافتى .

وأخذ الشيخ يستحثنى بقوله :

ـــ مابالك لاتجيب ؟

وفجأة وجدتك تقفز إلى ذهنى . وشعرت باسمك يتخذ مكانه على طرف اسانى وقلت له :

ـــ عويس .

ـــ عويس . . يصلح لخلافتك ؟ !

obeikandl.com

ـ أجل . . عويس .

ـ عويس ، الحمار الأبله الأبكم ، يصبح خليفة الشيخ قطة ؟ ! ماهذا بحديث عقلاء .. قل شيئاً آخر .

ولكنى مع ذلك أصررت عليك وصممت على ألا أتخذ لى خليفة سواك ، وقلت للشيخ قطة إنى مسئول عنك .. ولكنه قاطعنى فى سخرية :

ـ عويس يصبح خليفة الشيخ قطة ؟! والله لقدهزلت ، الواد عويس الغبى ، يصبح سيدنا الشيخ عويس ؟! على أى حال أنت وشأنك .

وانطلق الشيخ قطة يقهقه ضاحكاً .

وصمت الشيخ مبارك وأطرق برأسه برهة ، ثم رفع بصره إلى عويس وقال فى صوت عميق :

ـ وهكذا ياشيخ عويس ، لابد أن تعد نفسك لأن تتخذ موضعى بعد الرحيل .

ونظر عويس إلى الشيخ مبارك فى ذهول شديد ، وأخذ يتمتم قائلا : « الشيخ عويس » . . « سيدنا » ثم بدأ يتصور نفسه وقد ارتدى العمامة والمنظار وأمسك بالمسبحة والعصا ، وأقبل الناس عليه يقبلون يده ويمسحون جباههم فى طرف جبته زيادة فى التبرك .

من كان يظن هذا . . ؟ ! عويس . . يرث الخلافة ، ويضحى رب الضريح لاشريك له فيه . . ينام على الفراش ، ويأخذ الهدايا من كل حدب وصوب . . شاى . وسكر ، ومنين ، وبن ، وعسل ، وفطير ، وبلح . . هذا والله مالم يجسر على أن يأمله مرة واحدة فى حياته الراكدة .

وأى شىء يطلب منه تأديته فى مقابل هذا ؟ . الصلاة ، « بسيطة » ، والتسبيح « أمر سهل » ، والتمتمة « مسألة هايفة » ماذا يطلب منه أكثر من هذا ؟ .

وفجأة تذكر الكتاب والتلاميذ ، والتعريشة والألواح الصفيح . . هذه هى المعضلة الكبرى ، والعقبة الكئود .

وعض على إصبعه فى غيظ وندم وبدت على وجهه أبلغ آيات اليأس والفشل وقال للشيخ مبارك فى صوت خافت :

— لكن ياسيدنا الشيخ . . دانا معرفش أفك الخط !

كيف يمكن أن يصبح خليفة الشيخ مبارك وهو يجهل هذه الطلاسم التى يعلمها الشيخ للصغار من الصبية .

آه لو كان يعرف فك الخط . . لهان كل شىء .

ياله من حمار كسول ، ماضره . . لو كان اتخذ مجلسه بين التلاميذ . . فهتف معهم : زين وفتحه زا : ره وفتحه را ، عين وفتحه عا . . زرع .

ونظر إليه الشيخ مبارك نظرة فاحصة . وقال فى لهجة الواثق المطمئن :

ـ لقد فكرت فى كل هذا . لا تخش شيئاً . فسأتولى أنا أمرك . لا تقلق نفسك .

ـ كيف . . ألم تقل إنك راحل الليلة ؟

ـ أجل ! ولكنى أستطيع أن أهبط إليك حين أشاء . سأكون معك بروحى أفعل لك ما تشاء . . كل ما عليك هو أن ترتدى العمامة والمنظار والجبة وتمسك العصا والمسبحة وتترك الباقى لى .

وهز عويس رأسه فى حيرة وقال متسائلا :

ـ لست أفهم ما تقصد !

ـ سيصاحبك عفريتى أينما حللت يفعل لك كل ما تريد ويرشدك إلى كل ما تبغى . . ولن يبصره أحد سواك . . ما رأيك ؟

ووجد عويس أن المسألة أعوص من أن يستطيع فهمها أو التفكير فيها . ولم يجد خيراً من أن يكل أمره إلى الشيخ مبارك كما تعود أن يفعل فى كل شىء ، وقال فى لهجة ملؤها الاستسلام :

ـ أمرك يا سيدنا .

ومر اليوم بعد ذلك بعويس . وهو أشبه بالمذهول لا يعى من حوله شيئاً ، لا يكاد يسمع الصبية يصيحون : زين وفتحه زا .. حتى يدق قلبه بشدة . وتصيبه رجفة من قمة رأسه إلى إخمص قدمه ، ويقطر من جبينه العرق من فرط الوهم والخوف .

وانتهى اليوم وذهب الشيخ مبارك إلى فراشه وعويس ينظر إليه نظرات وجلة خائفة كأنه ينظر إلى عفريت .

ورقد الرجلان . ووصل إلى أذن عويس صوت شخير الشيخ مبارك أجش عميقاً كأنه يصدر من جوف قبر .

وبعد لحظات استغرق عويس فى نوم مضطرب ملؤه الأحلام الملأى بالعفاريت والأشباح .

* * *

وفجأة استيقظ على صوت يصيح به :

— عويس .

من الذى ناداه ؟ إنه صوت يشبه صوت الشيخ مبارك ولكنه قطعاً ليس صوت الشيخ مبارك ، فإن الشيخ مباركا قد رحل .

أجل ! لقد صعد إلى جوار الشيخ قطة ، وأضحى عويس الآن ، خليفة الشيخ قطة ، بلا شريك ولا منازع .

ومرة أخرى سمع الصوت العفاريتى ينادى :

— عويس .

ويح العفريت الأحمق المغرور ! ما باله ينادى هكذا ، كأنما هو الشيخ مبارك نفسه ؟

لعله نسى أو تناسى مركزه هنا ، إنه مجرد خادم لا أقل ولا أكثر .. كل ما عليه أن يؤدى ما يطلبه منه ، ويقضى له ما يحتاج إليه .. وهو بعون الله لن يحتاجه إلا فى مسألة فك الخط ، وتعليم الصبية ما تيسر من ضَرَبَ وَزَرَعَ وَأَكَلَ .. أما بعد ذلك فالله الغنى عنه ، إنه سيقوم وحده بكل ما تبقى من صلاة وتسبيح وتمتمة .

أجل ! هكذا كان الاتفاق ، أو هكذا وعد الشيخ مبارك قبل صعوده .. لقد أورثه كل ما ملك من ولاية ومشيخة ، وترك له الضريح بأكمله ، ولقد كان جديراً بأن يبقى كل ذلك له وحده لا يشاركه فيه إنسان لولا غباؤه وجهله بفك الخط ولكن الشيخ ترك له عفريته فى خدمته وتحت أمره .

فالوضع الآن قد تحدد بوضوح ، فعويس قد أضحى الشيخ مباركا .. وما تبقى من الشيخ مبارك ، أى عفريته قد أضحى عويساً .

فالواجب إذاً أن يرقد عويس فى الفراش ، وأن يستلقى

العفريت .. إذا كان لابد له من الاستلقاء فوق الحصير .

وعلا الصوت مرة ثالثة يصيح ناهراً :

ـ وله يا عويس يا ابن الصرمه القديمه .

ما شاء الله ، ما شاء الله .. هكذا يبدأ العفريت خدمته.

طبعاً هو يظنه يجهل حقيقة الموقف . ويحاول أن يشتمه فيتخذ منه موقف السيد كما كان يفعل الشيخ مبارك وهو يبدؤه بهذه السباب كما كان يفعل الشيخ ، ظاناً أنه خادعه ومخيفه ومخضعه لسلطانه .

والله ليرينه عاقبة خداعه وسفالته . صبراً يا عفريت الكلب !

ومرة رابعة . . انبعث الصوت مندفعاً بسلسلة السباب المعتادة :

ـ وله يا عويس . . يا تور .. يا ابن التور .

لا . . لقد زادها . . لابد من ردعه وإلا ساق فيها .

وجلس عويس القرفصاء وصاح بأعلى صوته حانقاً :

ـ عايز إيه من عويس ؟

مالك بتزعق كده يا واد ، إنت اتجنيت .

ـ أنا اللى اتجنيت ؟ والله عال يا ولاد . . أنا برضك اتجنيت ؟

— يا واد وطّى صوتك . وما تزعقش كده . . وفوق لنفسك . وقوم اعمل الشاى .

— شاى ؟! كمان عايز شاى ؟ ! أهو ده اللى ناقص !

— إنت يا واد جرا لعقلك إيه النهارده ؟

— طيب اتخمد أحسن لك . وخلينى انام . . إحنا ماصدقنا ربنا تاب علينا .

— يعنى مش حا تعمل الشاى ؟

— شاى لما يهرى جوفك . . مش كفايه بجعمز على السرير . وسايبنى أنام على الحصيره . . قوم فز . . قامت قيامتك واتنصب ميزانك . قليل الحيا ما تختشيش .

— عويس ، فوق لنفسك يا عويس .

— فوق انت ، كل واحد لازم يلزم حده هنا ويعرف مركزه . . من هنا ورايح تيجى تترمى مطرحى هنا . وتعمل الشاى وتحضر لى الميه أتوضا . . أنا مابقتش حاجه قليله . أنا الشيخ عويس على سن ورمح . . واعمل حسابك تقف ورايا فى الدرس ، وتمليني كلمه كلمه ، واوعى تغلط لحسن أوريك شغلك . . فاهم والا لأ .

— لا . . الواد لازم جرى لعقله حاجه أكيد . . لازم عايز له قلمين على سداغه يفوقوه .

وسمع عويس صوت القبقاب الخشبي يقرع البلاط مقتربآ منه ، فظل يصيخ السمع حتى وجد شبح الشيخ يستقر أمامه فجأة بالعباءة على كتفيه والعمامة فوق رأسه وصاح به :

— إيه يا واد الكلام اللى انت بتقوله ده .

— وكمان لابس العمه والعبايه .. طب اقلع بأه بالتى هى أحسن . اقلع أحسن لك يا نصاب ياحرامى ، الحاجات دى كلها بقت بتاعتى ، اقلع بسرعه ، بلاش نصب عفاريت .

— أقلع إيه يا واد ؟

— اقلع العبايه والعمه بتاعة الراجل .

— أنهى راجل ؟

— الشيخ مبارك .

— طب مانا الشيخ مبارك ، يا أعمى العين والقلب .

— وكمان بتقول إنك الشيخ مبارك ؟

واندفع عويس يقهقه ساخرآ ، وعند ما هدأ ضحكه ، قال فى هدوء ناصحآ :

— بق اسمع يا أخينا ، أنا ماحبش المناكفه ولا ينطليش علىّ شغل العفاريت ده .. الشيخ مبارك راح وانتهى أمره هوّا اللى قايل لى كده بلسانه ، إمبارح قال لى إن الشيخ قطة زاره فى المنام وقال له إنه عايز ياخده ، وإنه كان ناوى يطلع

معاه لولا إنه حب يوصينى على الشغل ويدينى شوية نصايح عشان أشتغل بداله . ولما قلت له إن أنا معرفش أفك الخط قال لى ماتخفش . أنا حابعتلك عفريتى ، يعمل لك اللى انت عايزه .. يعنى انت دلوقت ماتزيدش عن خدام . خدام فك الخط .. دى كل شغلتك . فاهم والا لأ؟ تقول لى وله ياعويس وله يا هباب ، وتفهمنى إنك انت الشيخ مبارك . . ده كلام مايدخلش عقلى . كلام نصب وتهويش . . فوت يالله اقلع العبايه والعمه وحضر الشاى . . واتلم بالتى هى أحسن . . أنا عايز عفريت ملحلح ونشط ، ماتعملش زى التنبل ، اللى اسمه عويس .. فوت ربنا يهديك .

ـ اسمع ياعويس ياخويه .. ربنا يهديك انت ، الكلام اللى قولتهولك دا كان حلم ، وانا لسه ما متش ، لسه عايش لغاية دلوقت ، الشيخ قطة خلف ميعاده ، فاصبر عليه شويه لغاية ماموت ، أنا دلوقت الشيخ مبارك ، صدقنى .

ـ أيوه ياخويه خش فى عنيه خش . . أصلى حمار . . ينطلى عليه الكلام ده .. يروح الشيخ مبارك ، الله لا يرجعه تلاقى عفريت الشيخ مبارك . . فوت انجر اعمل الشاى ، واقلع اللى انت لابسه ده .

وهنا نفد صبر الشيخ مبارك ، ورفع كفه ، وانهال بها

على صدغ عويس بكل ما فيه من قوة صائحا :

ـــ قوم جاك خابط فى نافوخك . تور ابن تور ، قوم .

وقام عويس وتفرس فى وجه الشيخ مبارك لحظة وهو يعض على نواجذه ثم قال فى غيظ مكتوم :

ـــ برضك دا اللى أنا عامل حسابه . سكتنا له ، دخل بحماره ، بقى اسمع اما اقول لك .. هى زرع والا ضرب دى حاتجيب القليعه . . ياخى بناقص زرع وضرب . . مش ضرورى الأولاد يعرفوا الكلام الفارغ ده ، أدحنا طول عمرنا كويسين من غير زرع وضرب . . نقفل الكتّاب ده ونفضها سيره .

وفكر عويس برهة . إن خير ما يفعله هو أن يمسك بالعفريت ويلحقه بصاحبه إلى حيث الشيخ قطة ، وبذا يخلو له الجو .

وفجأة رفع عويس هراوته وانهال بها على رأسه . خر على الأرض صريعاً .

واستيقظ أهل القرية ، ليجدوا الشيخ مباركا مضرجاً بدمائه . قتيلا فى رحبة الدار .. أما عويس فقد أستقر به المقام فى مستشفى المجاذيب ، متمتعاً بالخلافة ، مصراً على أنه خليفة الشيخ قطة .

سي جمعه

سي جمعه هذا . . انسان لا أظن من السهل وصفه . . ولا من السهل معرفة مهنته . . ومحل اقامته . . أو فهم خلقه وشخصيته . . وان كان أبرز مافيه . . أو ما يمكن معرفته عنه . . هو أنه لاعب كرة قديم . . كان له سابق مجد وتالد عز .

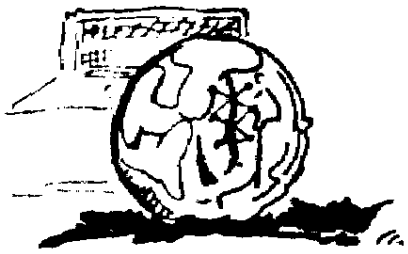

obeikandl.com

لم يكن

هناك شك فى أن هناك جديداً قد طرأ على «سى جمعه» .

وقبل أن نحاول شرح هذا الجديد الطارىء على «سى جمعه» لا بد لنا أن نشرح «سى جمعه» على قديمه .. أو على ما تعود أن يكون عليه قبل أن يطرأ عليه الجديد الطارىء .

سى جمعه .. أو جمعه افندى .. أو جمع .. كما تعود أن يدلل من الأقربين إليه أو محمد محمد محمد عبد الرحيم جمعه .. أو كما تعود هو أن يكتبه فى أوراق الامتحانات .. أو كما كان يناديه الشيخ زينهم مدرس الخط العربى الذى كان يأبى إلا أن يناديه باسمه الكامل حتى ولو ناداه مائة مرة خلال خمس دقائق .

سى جمعه هذا .. إنسان لا أظن من السهل وصفه .. ولا من السهل معرفة مهنته .. ومحل إقامته .. أو فهم خلقه وشخصيته .. وإن كان أبرز ما فيه .. أو ما يمكن معرفته عنه .. هو أنه لاعب كرة قديم كان له سابق مجد وتالد عز .

ولسنا نعنى بذلك أنه قد أضحى «عزيز قوم ذل» .. فهو لا يذل أبداً مهما أصابه ، ولا يخنع مهما أخنى عليه الدهر ورق به الحال .. بل هو يرى نفسه دائماً «كابتن» فى كل

وقت وفى كل مكان . . فما استطاع الفقر والبهدلة ، والوهن والعجز . . أن تنزع من رأسه أنه . . « الكابتن جمعه » السنترفور وارد الذى لا يشق له غبار . . ولا يقعقع له بالشنان .

واستمر جمع طالباً فى المدرسة يقضى يومه على المقهى الكائن على ناصية الشارع فى لعب الورق «والطاولة» مع بقية الشلة المكونة من لاعبى الكرة الفاسدين والطلبة «المزوغين» .

واستمر نجمه فى البزوغ ومرت به أيام ذهبية . . اشتهر فيها وتناقلت اسمه الألسن . وأضحى يحس فى نفسه . . كلما سمع هتافاً باسمه . . أو حمل على الأعناق كأنه زعيم قومى .

ولم يطل بنجمه البزوغ . . فسرعان ما أفل كغيره من لاعبى الكرة السريعى الأفول . . وبدأت نهايته بانحداره إلى السهر فى الكباريهات وباستبدالها بمقهى الوردة البيضاء . . كازينو استانبول . . وبدخوله فى دور « رَفَقَ » مع سنيه بعزق .

وهكذا حلت نهايته كلاعب كرة . . وأغلقت فى وجهه النوادى . . ليفتح فى وجهه باب « سنيه بعزق » على مصراعيه ويدب فى جسده الوهن والنحول والاسترخاء . . ومع ذلك فما نسى قط أنه الكابتن جمعه . . بل استمر حنينه إلى

اللعبة يدفعه إلى مشاهدة كل مباراة من المباريات الكبرى .. وإلى « حشر » نفسه « والهنكرة » بين اللاعبين .

وانقطعت عن جمعه النقود التى كانت تدرها عليه قدرته فى لعب الكرة من النوادى ومن المباريات . . وأضحت موارده محصورة فيما كانت تعطيه إياه صاحبته الراقصة .

واستمر جمعه يرتع فى حياة بوهيمية صاخبة منهكة حتى كان ذات صباح لاحظت سنيه أنه قد استيقظ مبكراً على غير عادته . . وأنه قد أقبل على حلاقة ذقنه بعناية ، وسألها أن ترسل ملابسه إلى الكواء .

ولم يكن هناك شك فى أن جديداً قد طرأ عليه ، وأنه مقبل على حدث جلل . فما كوى بذلته منذ أن وضعها على جسده . . وما حاول من قبل أن يرتدى كرافتة وأن يصلح هندامه .

واستفسرت أم سنية عن الطارىء الجديد فأنبأها فى ثقة أنه سيحصل على وظيفة محترمة .

وغادر جمعه الدار ، وسار — لأول مرة فى حياته — فى تؤدة واتزان ، وقد كسى نفسه هيبة كبار الموظفين .

وانفرجت شفتاه عن ابتسامة واسعة ، وهمس لنفسه : « والله عال يا ابراهيم . . يا فلاح يا ابن الفلاح . . بقيت من

كبار القوم . . بس إياك ماتطلعش ندل وتنسى الجميل » .

وابراهيم هذا . . هو ابراهيم الفيومى . . أو ابراهيم الفلاح ، الذى كان زميلا لجمعه فى المدرسة ، والذى كان موضع سخرية الطلبة وضحكهم لفرط ولعه بالكرة ، وخيبته فيها .

كان ابراهيم الفلاح يتمنى أن يكون لاعب كرة ، وكان ينظر إلى جمعة نظرته إلى أصحاب المعجزات ، وكان يحس له نفس الاحترام والتقدير الذى يحسه لسيدنا الحسين والسيد البدوى ، وكان أقصى رغباته هو أن يصاحبه فى المباريات ويحمل له حقيبته .

وفى ذات يوم تغيب أحد أفراد الفريق الثانى فى إحدى المباريات فتعطف جمعه عليه وأنزله بدل الغائب ، وهكذا حقق له أمنية طالما تلهف عليها ، ووهبه فرصة فى حياته يرتدى فيها فانلة الكرة المخططة والحذاء ذى الرباط الطويل الأبيض « والاستدز » .

وباعدت الظروف بين جمعه وصاحبه الفلاح ، واستقر ابراهيم مع أبيه فى البلدة يساعده فى إدارة مصنع النسيج الذى احتوى بضعة أنوال يدوية ومرت الأيام وبدأ جمعه يسمع عن اتساع المصنع وتضخمه خلال الحرب حتى أضحى جمعه يقرأ بين آونة وأخرى الاعلانات الضخمة فى الصحف

عن مصانع الفيومى للغزل والنسيج وعن مدى أثرها فى النهضة الصناعية .

وفى ذات يوم استلفت نظره صورة صاحبه الذى كان ما زال يصر على تسميته « الواد الفلاح » وقد وضعت فى مكان بارز فى إحدى الصحف الصباحية الشهيرة وقد كتب تحتها « صاحب العزة ابرهيم بك الفيومى » وأنه يشكر كل من تفضل فهنأه بالانعام السامى .

وفى ناحية أخرى من الصحيفة قرأ خبراً آخر أن الوفود مازالت تترى على دار الوجيه ابراهيم بك الفيومى لتهنئته بالعطف السامى الكريم .

وفى ناحية ثالثة قرأ خبراً ثالثاً مؤداه أن ابراهيم بك الفيومى صاحب مصنع الغزل والنسيج قد تبرع بمبلغ سبعة آلاف جنيه لمشاريع البر .

وأصاب جمعه دهش شديد وترك الصحيفة جانباً . . وشرد به الذهن بعيداً فى الأيام الخوالى . . أيام كان صاحب العزة يتلهف على أن يحمل حقيبته التى وضع فيها ملابس الكرة مرة واحدة وتذكر فرحته الشديدة عندما أدخل ضمن الفريق فى إحدى المباريات ، وتذكر عدوه فى الملعب وقد تدلى شرابه وبدت ساقاه كالجريد وانطلق بين اللاعبين

كالثور الهائج دون أن تمس قدمه الكرة مرة واحدة . .
أضحى صاحب عزة ! ! ووجيهاً ! ! ولم يستطع أن يكتم ضحكة انطلقت من فمه ، وأخذ يردد لنفسه « الفيومى بك ، الوجيه ابراهيم بك ، صاحب العزة » وانطلق يقهقه بشدة متذكراً منظر « الواد الفلاح ابن الفلاح » الذى بينه وبين الوجاهة ماصنع الحداد .

وفجأة مر بذهنه خاطر أفعمه سروراً .

هذه والله فرصة هائلة .

لِمَ لا يذهب إلى الواد ابراهيم بك ، فيأمره بأن يعطيه عملا فى مصانعه الكبرى ! إنه لاشك مازال يحس له بعض الرهبة القديمة . وما زال يعتبره الكابتن جمعه ، أو جمع « أبو رجل دهب » وليس هناك أسهل عليه من أن يهبه منصباً محترما .. مدير فرع .. أو مدير قسم .. أوباشمهندس أو أى شىء من هذا القبيل ؟

ووصل أخيراً إلى إدارة المصنع ، دار فخمة البناء مليئة بالحركة ، ودلف بين الحجرات سائلا عن ابراهيم بك فقاده أحد السعاة إلى مكتب السكرتير .

وسأله السكرتير فى ازدراء ظاهر :

— نقول له مين ؟ .

— جمعه . . الكابتن جمعه .

وقلب السكرتير شفتيه ثم قام متباطئاً ، فغاب برهة فى غرفة مجاورة ثم عاد يقول :

— ادخل .

وفتح الباب ودلف إلى الحجرة التى كتب عليها « المدير » ووجد « المدير » قد جلس على مكتب فخم ، وقد أحاط نفسه بأروع مظاهر الأبهة والوجاهة .

وارتبك جمعه ، فلشد ماوجد صاحبه قد تغير ، وبدت عليه سيما كبار الرجال وأضحى كل ما به وما حوله وما فوقه وماتحته وجيهاً فعلا ، اللهم إلا ذلك الوشم الأخضر ، الذى بدا على ظهر يده .

وتردد جمعه برهة ، ولم يدر كيف يقبل على صاحبه ، ولا كيف سيتلقاه صاحبه ، ولم يجد خيراً من أن « يسوق الهبالة على الشيطنه » ويهجم عليه ويأخذه بالحضن ، دون أن يعطيه فرصة الكبر والترفع .

وانتهى الصاحبان من العناق والتقبيل ، وجلس جمعة وقد وضع ساقاً على ساق واندفع يذكر صاحبه بما مضى وبأيام زمان ، ولم يبد على ابراهيم بك أن تلك الذكريات تسره كثيراً ، وحاول جهده أن يختصر الحديث وأن يقود

جمعه إلى الإدلاء بغرضه الرئيسى من الزيارة .

واسترسل جمعه فى سرد الذكريات قائلا وهو يقهقه بلا كلفة :

— والله زمان ياوله يا ابراهيم !

وانبعثت من عينى ابراهيم بك نظرة وجلة خائفة مترددة بين الباب وجمعه .

كان الرجل حائراً فهو لا يستطيع أن ينهر هذا الحيوان المندفع فى ثرثرته المشئومة الفاضحة لأنه يخشى عواقب هذا النهر ، ويخشى إن أغضب هذا الأحمق أن يمعن فى غيه وتنقلب ثرثرته البلهاء غير المقصودة إلى ثورة جامحة يثير بها ضجة كبرى ، بل ربما اعتدى عليه بالضرب قبل أن يتمكن السعاة من إنقاذه ، فهو لم يكن يتورع وهو تلميذ عن أى شىء ، حتى عن ضرب الناظر لو استدعى الأمر ، فما بالك الآن وبعد أن جاوز التلمذة وأصبح كما يبدو متشرداً لا يأبه لعاقبة ولا يخشى نتيجة !

وابراهيم بك رغم بكويته ورغم العز والسؤدد والأبهة والفخامة التى يرفل فى حللها الآن قد وجد نفسه يتضاءل فجأة أمام هذا المتشرد الوقح فقد نجح فى جره معه إلى الماضى البغيض فإذا به يشعر أنه قد بات فعلا الواد ابراهيم الفلاح

وأن الذى أمامه هو الكابتن جمع « أبو رجل دهب » ذو الحول والطول والشهرة والسلطان .

وهكذا كان من المتعذر . . بل من المستحيل . . وقفه عند حده . . وإسكاته عن ترديد ذكرياته المزعجة المشينة ، وكذلك كان من المستحيل أيضاً السكوت على هذا الحال وتركه يستمر فى ثرثرته الخطيرة اللانهائية . . لا لأن ابراهيم يتأذى من سماعها . . فقد كان يستطيع سماعها بسهولة . . بل ربما لو كانا على حدة لوجد فى ترديدها بعض المتعة . . ولكن لأنه كان يخشى أن يدخل السكرتير أو أحد الموظفين فجأة فيصل إلى أسماعه بعض ذلك الهذيان الذى يهرف به صاحبه .

واستمر جمعه يقول :

ــ فاكر يا ابراهيم . . أيام ثانوى .

وهمَّ ابراهيم بأن يقاطعه قائلا :

ــ فاكر ياسى جمعه . . فاكر كل حاجه . . بس مافيش لزوم للحاجات دى دلوقت . . الله لا يسيئك .

ولكن جمعه لم يترك له الفرصة لمقاطعته فقد استرسل قائلا :

ــ فاكر لما هفتك نفسك على لعب الكوره فرحت

مسهينا وقالع البنطلون ونازل الملعب تجرى ورا الكوره باللباس الطويل الدمور أبو دكه بشراشيب مدلدله وقعدت تبرطع زى الحمار الحصاوى . . والتلامذه يسقفوا لك ويقولوا : « الكوره فين ؟ . . جوه لباسه » .

واندفع جمعه فى زوبعة من القهقهة وهو يردد قوله :

— فاكر .

وهز ابراهيم بك رأسه فى يأس واستسلام وقال :

— فاكر ؟

— وفاكر لما . . . .

ولكن ابراهيم بك نهض من مقعده جزعا وقال فى توسل :

— ثانيه واحده ياسى جمعه . . جى لك حالا .

ثم أسرع إلى الباب وأطل منه منادياً السكرتير قائلا :

— يا على افندى ، وحياة أبوك ما تدخلش حد عندى دلوقت لحسن مشغول شويه مع الأستاذ جمعه .

ثم أغلق الباب وعاد إلى مقعده وقد هدأ باله بعض الشىء . وفرك جمعه يديه ودفع طربوشه إلى الخلف كأنه يستعد لخوض معركة وعاود ترديد سلسلة الذكريات الممتعة قائلا :

— فاكر يا ابراهيم لما أبوك جاب لك البتاو وقعد يستناك على الرصيف أمام المدرسة يوم الخميس . . وكان

عندنا ماتش كوره ، وبعدين شيلناه اللبس مع عم عماره فراش الكوره .. وبعد الماتش لبسناه الفانله المخططه و . .

وأجاب ابراهيم متقاطعاً وهو يتصنع الابتسام :

ـــ فاكر . . فاكر . . كانت أيام لذيذة .

وقال لنفسه :

« وبعدين فى ابن الكلب ده . . . هوَّا قصده إيه بالضبط بالفضايح دى ؟ ! مش يتكلم ويريحنى بقى ؟ »

وهز جمعه رأسه ومصمص شفتيه مظهراً أسفه على الأيام الخوالى قائلا :

ـــ حقيقه كانت أيام لذيذه . اللى فات مايتعوضش أبداً .

وانتهز ابراهيم الفرصة وأسرع بتحويل دفة الحديث متسائلا :

ـــ وازاى الحال دلوقت ياسى جمعه . . فين أراضيك ؟

وبمنتهى البساطة أجاب جمعه :

ـــ فى وش البركه .

ـــ فين ؟ ! ! .

ـــ فى وش البركه .

ـــ قصدى بتشتغل فين ؟

ـــ برضك فى وش البركه .

وأحس ابراهيم بالارتباك والخجل ولم يكن هناك وجه لسؤاله عما يعمله هناك إذا لم يكن العمل فى مثل هذا المكان ليخرج عن عملين أشرفهما مشين .

ولكن جمعه ألقاها بلا خجل وبدون أن يوجه إليه إبراهيم سؤالا :

— بلطجى .

ولم يعرف ابراهيم بماذا يعلق على قوله ، فلاذ بالصمت ولم يجد جمعه بداً من أن يعلق هو . . فقال :

— شغلانه مش بطاله . . مريحه . . أكل ونوم وراحه وخناقه قول كل شهر مره .

وساد الصمت وكان على ابراهيم أن يقول شيئاً فتساءل لمجرد الحديث :

— ومبسوط على كده ؟ .

— رضا . . ولو ان اليومين دول الحاله بطاله ، وابتديت أزهق من القعده ، وقلت الواحد لازم يشوف له شغلانه .

هكذا ؟ ! ! . . إذن لقد وضح الأمر أخيراً . . لقد أتى جمعه باحثاً عن عمل . . أو هو بالعربى . . يريد الانتقال من « وش البركة » إلى « مصانع الفيومى » .

obeikandl.com

وصمت ابراهيم وتظاهر بفحص بعض أوراق أمامه .
وعاود جمعه حديثه قائلا :

— قعدت أفكر .. أشتغل فين .. أروح لمين .. وبعدين بامسك الجرنان لقيت صورتك فيه .. أقول لك الحق اتخضيت افتكرتها صفحة الوفيات لكن بقرا كده لقيتك بقيت بيه وبقيت أشيتك رضا .. قلت فرجت .. مافيش حد حايلمنى غيرك .. جدع طيب وطول عمرك على أد إيدينا .. ومش حايصعب عليك تلاقيلنا فى الشركه شغله كده والا كده .

شغله كده والا كده ؟ ! !.

وماذا يستطيع مثل هذا الحيوان الآدمى أن يفعل ؟ ! وكيف يأمن لوجوده وهو حريص على ترديد مثل هذه الذكريات بمنتهى البساطة .. وماذا يفعل إذا فاجأه أمام العمال بقوله : « فاكر لما أبوك جاب لك البتاو وقعد على الرصيف ؟ .. الخ »

ولكن كيف يتخلص منه ، إنها مشكلة .. إنها مصيبة ، — كما يقولون — وطبلت على دماغه .. على أية حال .. ليس هناك من حل الآن .. سوى مداراته ، ووعده بوظيفة والتخلص منه مؤقتاً لحين التفكير فى حل له .. فقد يستطيع

أن يوجد له عملا فى فرع فى إحدى البلدان وبذلك يضمن بعده عنه ، ولكن أيرضى الكابتن جمع بوظيفة حقيرة خارج القاهرة ؟ .. إنه يبدو كأنما يريد أن يجلس على مقعده هو أو أن يصبح على الأقل وكيل الشركة .

ما علينا . . نبعده الآن بأى وعد نصرفه به .

وقبل أن يفتح فاه ، برق فى ذهنه خاطر مفاجىء ، وجد فيه حل لمشكلة مستعصية ، حل يضرب به عصفورين بحجر.

تذكر أخته زكية العانس .. التى تنغص عليه حياته بطول شكواها من قلة الجواز وميلة البخت . والتى لا تكف عن العراك مع زوجته حتى كادت تتسبب لهما فى الطلاق بضعة مرات دون أن يعرف كيف يتخلص منها . . بعد أن عجز تماماً عن إيجاد عريس لها .

هذه فرصة سانحة لصفقة رائعة ، فجمعة لو هداه الله سيكون خير عريس لأخته زكية ، وليس أنسب من هذه اللحظة لانتهاز الفرصة والمقايضة بالوظيفة على زكية .

ووضع ابراهيم ابتسامة عريضة على شفتيه وهز رأسه وقال فى لهجة شديدة النعومة :

— ياسلام يا كابتن جمعه ، إحنا ديكى الساعه لما تقبل تشتغل عندنا .. داشرف كبير للشركه .. دى خطوه عزيزه

يابو رجل دهب . . أنا من زمان نفسى أشوفك . . عشان نعيد أيام زمان .

وانتفخت أوداج جمعة وازداد اتكاء على كرسيه وأجاب بقوله :

ـ أنا برضك عارف كده . . عارف إن أملى مش حايخيب فيك أبداً إنت طول عمرك ولد طيب وابن حلال .

ولد ؟ يابن الكلب ؟ ! ! البكوية اللى دفعت فيها سبعة آلاف جنيه مازالت ساخنة وتقول لى ولد ؟ .

ولكن صبراً .. لابد من تحملك فى سبيل التخلص من زكية وبلاويها .

واستمر ابراهيم فى قوله :

ـ الشركه تحت أمرك ، أنا حاشوفلك وظيفه عال تناسبك كويس . . بس . . .

ـ بس إيه ؟ .

ـ بس إياك ربنا يهديك ويتوب عليك من السيره اللى انت فيها . . ويلك على بنت الحلال . . وتستكن فى بيت نضيف ظريف .

ـ ياريت يا ابراهيم يا خويه . . فين بنت الحلال اللى ترضى بى .

— ليه هو انت وحش .. دانت لقطه .

— على العموم لما نترستأ فى الوظيفه يبقى يحلها المولى .

— المولى حاللها والأشيا معدن .. والوظيفه موجوده وبنت الحلال موجوده .

— بنت الحلال ؟!! إنت بتتكلم جد ؟ .

— وأبو الجد .

— إزاى بقى ؟ .

— زى الناس .. إنت مانتاش غريب إنت زى أخويه وانا طول عمرى أودك وأحبك ، واهى فرصه تتناسب فيها ونخلى زيتنا فى دقيقنا .

— ولا أنا فاهم حاجه .

— ودى حاجه عايزه فهم .. أنا عندى أخت هديه .. إياك ربنا يجعلها من نصيبك .

— أختك انت ؟!!

وظل جمعه محملقاً بعينيه فاغراً فاه .. و « أخت ابراهيم » تطن فى أذنيه وتدور فى رأسه .

عجيبة ؟!! .. يتزوج أخت الواد ابراهيم الفلاح ؟ .. أستغفر الله .. بل أخت ابراهيم بك الفيومى ؟!! .

من يصدق أن الزيارة كان يمكن أن تنتهى إلى مثل هذا

لقد أتى يطلب وظيفة ، فخرج بوظيفة وعروس : صدق من قال « الفتى لما يسعد تجى له خاتمتين فى ليله » .

وكان لابد من مرور فترة من الوقت حتى يهضم المفاجأة وتخف الصدمة وتهدأ النفوس وتستقر الفكرة فى الرءوس .

ولم تكد تمر الفترة المطلوبة ، ولم يكد يقلب جمعه الفكرة فى رأسه ، ويجدها فرصة العمر حتى قفز من مكانه وهجم على ابراهيم يحضنه ويقبله ويصيح به :

— يا سلام يا ابراهيم ، أنا طول عمرى قلبى يحبك ، وياما كنت أقول لهم الواد ابراهيم الفلاح ده ، حقيق غبى وحمار ، لكن ابن حلال مصفى .

وأخيراً غادر جمعه المكتب بعد قراءة الفاتحة ، وبعد أن اتفق معه على زيارة منزلية يتم فيها اللقاء والاتفاق على بقية إجراءات الزواج .

وخرج جمعه يسير مترنحاً نشوان وكأنه رأى ليلة القدر ولكنه تذكر فجأة ما أنزله من علياء أوهامه وأحلامه ، وما ملأه غماً وهما .

تذكر سنيه بعزق !

ماذا يقول لها وكيف يتخلص منها ؟ . كيف يخبرها أنه سيتزوج ؟

ولاح له الحل السعيد فانبسطت أساريره مرة أخرى . المسألة بسيطة ، بل غاية البساطة . ليس عليه إلا أن ينبئها أنه وقع فى صيدة غنية بحبوحة ، يستطيع أن يستنزف منها ماشاء من النقود ، فتهيء لكليهما حياة سعيدة ، وأنهما لن يصيبهما ضنك بعد الآن ، بعد أن عثر على ذلك البنك المتدفق نقوداً .

وعاد جمعه إلى صاحبته وروى لها القصة كما حورها فى ذهنه وأنبأها أن علاقتهما ستظل كما هى لن يصيبها وهن وأنها ستبقى هى الكل فى الكل ، أما الأخرى فلن تكون أكثر من مورد للمال .

وتقبلت سنية الأمر مستسلمة ، مصدقة ، فما كانت تملك أمام جمعه سوى التصديق والاستسلام ، بعد أن عاهدها أنها ستظل خليلته مهما حدث .

وبعد يومين ذهب جمعه إلى بيت ابراهيم مرتدياً حلة جديدة اشتراها بعد أن باع بعض حلى سنيه .

ووقف أمام البيت الفخم يقرع الجرس وبعد برهة أطل الخادم النوبى . فسأله فى تأدب :

— إبراهيم بيه موجود؟

— لأ . . خرج .

ـ راح فين ؟ .

ـ المستشفى .

ـ المستشفى ؟ ليه كفى الله الشر ؟

ـ عشان الست أخته حاتعمل عمليه .

عملية ؟ ؟ وامصيبتاه . . حقاً قليل البخت يلاقى العضم فى الكرشة .

أية عملية هذه التى قد استحكمت الآن . . ألم يكن من الممكن تأجيلها حتى يكتب الكتاب ويصبح وريثها الشرعى ؟

والمصيبة العظمى . . أن « تحبك » المسألة . . وتموت فيها .

أهناك أسوأ من هذا حظاً ؟ .

تظل المرأة . . على قيد الحياة . . لا يقربها الموت . . طيلة هذا العمر المديد . . فلا تكاد تستحل له . . ولا يكاد يهم بالتهامها . . حتى تعمل عملية وتموت .

ولكن ما الداعى لهذه الوساوس . . إنها ستشفى بإذن الله . . إن الحظ قد واتاه ولن يغادره بعد ذلك .

وأخذ جمعه أقرب ترام ، وبعد نصف ساعة كان يجلس فى المستشفى ضمن الأهل والأقارب والأصدقاء . . وقد جلس منتفخاً على أحد المقاعد كأنه الديك الرومى . . ولِمَ لا ؟! أليس هو أقرب الناس إليها ؟. أليس هو زوجها فى خلال أيام ؟

وطالت العملية .. وجمعه يدعو من قلبه أن يكلأها الله بالعناية ... على الأقل حتى يتم الزواج ... وبعد ذلك ليأخذها وقتما شاء وكيفما شاء .

وأخيراً انتهت العملية .

ترى ما النتيجة ؟ ! ! خير يارب خير .

ولكنه لا يرى على الوجوه المتجهمة أى خير .. إنه يسمع همهمة ودمدمة وتساؤل .. إن سيماهم لا تنذر إلا بالسوء .

ويحه ! ! أترى المرأة قد فعلتها وماتت .. من سوء بخته .. ولكنه لا يسمع صواتاً ولا يبصر دموعاً .. إذا كانت قد ماتت أفلا أقل من بعض النهنهة أم ترى البكاء محرماً فى المستشفيات ؟

وأخيراً لم يطق الانتظار .. وكاد القلق والشك يقتلانه فاندفع إلى أخيها إبراهيم الفيومى العابس الوجه المقطب الجبين وانحنى به ناحية قصية وسأله فى لهفة :

— إيه يا ابراهيم ؟ ! فيه إيه .. إزاى الحالة ؟

وأطرق ابراهيم برأسه ثم اقترب بفمه من أذن جمعه وهمس بعض كلمات .

ولم يكد جمعه يسمع الهمس حتى انطلقت منه صيحة

لم يستطع كتمانها ووقف برهة واجماً ذاهلاً كأنما قد نزل عليه مبهم الله .

وأخيراً أفاق لنفسه وغادر المستشفى وهو يهز رأسه حزناً وأسفاً وقد بدت عليه أقسى آيات الخيبة والفشل .

ووصل إلى سنية بعزق فأذهلها مظهره اليائس البائس ، وأقبلت عليه تسأله فى دهش :

ـ إيه الحكايه ؟ مالك . كفى الله الشر . قولى حصل إيه . . طردوك ؟ .

ـ لا .

ـ أمال إيه ؟ .

ـ رحت لقيت العروسه فى المستشفى بتعمل عمليه .

وضربت المرأة بيدها على صدرها :

ـ وبعدين . . يا ندامه . . جرى لها إيه ؟

وأجاب جمعه وهو يهز رأسه أسفاً :

ـ ولا قبلين . . قليل البخت يلاقى العضم فى الكرشه .

خلاص . . طارت .

ـ طارت ؟

ـ أيوه طارت . . برمت .

ـ يعنى إيه طارت وبرمت ؟

obeikandl.com

ـ يعنى طارت من إيدى وبرمت من الجواز .

ـ قصدك ماتت ؟

ـ ما ماتتش ولا حاجه .

ـ أمال جرى لها إيه ؟ فهمنى . . غلبتنى .

وصمت جمعه برهة ثم أطلق زفرة حارة ملؤها اليأس وقال فى أسى :

ـ قلبت راجل .

ـ قلبت إيه ؟

ـ راجل .

ـ مش ممكن . . .

ـ اللى حصـــل . . قعدت أربعين سنه نتايه . . ما حلهاش تنقلب دكر إلا لما خطبتها . . مش بقول لك قليل البخت يلاقى العضم فى الكرشه . . أربعين سنه وهما يقولولها الست زكيه . . يوم ما نويت أخطبها دخلت المستشفى . . وطلعت زكى أفندى . . بس أعمل إيه فى الفقر الدكر اللى مش عاوز يحل عنا ؟

ـ ولا يكون عندك فكره . . مَرَه . . راجل مش حاينفد منا أبداً . . إذا كان حايرجع مره أهو من قسمتك . . وإذا استمر راجل . . مانيش عاتقاه .

الاستاذ شملول

لم يكن هناك ما يدعو شملول افندي الى التفكير في الرحيل ، أو المغامرة ، وهو القعود الكسول البطيء الحركة . . الذى كف عن النزهة . . منذ مشوار « جنينة النزهة » . . والذي كانت أقصي متعته الجلوس على قهوة الانشراح القائمة على ناصية الشارع حيث يلعب « عشرة طاولة » ويشد أنفاساً من الشيشة .

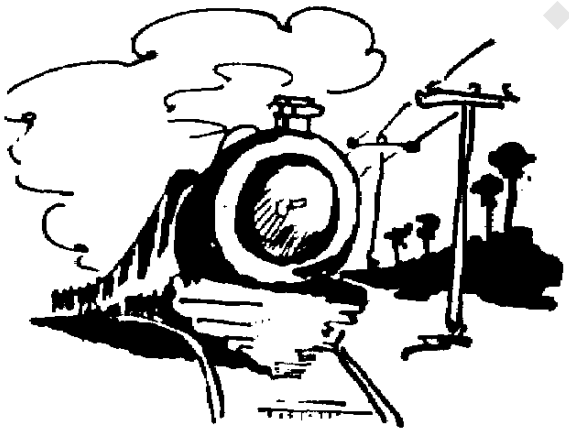

obeikandl.com

قرر شملول افندى الرحيل .

وأخيراً لقد كانت المسألة بالنسبة إليه مغامرة كبرى تحتاج منه إلى كثير تروّ وتفكير .

ومع ذلك فقد قرر . وانتهى الأمر .

حرام عليه أن يضيع عمره سدى . . ماقيمة الحياة إذا جرت على هذا النمط البليد المتكرر المتشابه ؟

من يصدق أنه قد بلغ الأربعين دون أن يغادر القاهرة مرة واحدة ؟

أربعون عاماً قضاها فى ذلك النطاق الضيق بين الناصرية والسيدة وشارع خيرت والدواوين .

فى طفولته . . كان مجال حركته وغدواته وروحاته لايتعدى شارع الناصرية . . ففيه كان البيت وفيه كان الكُتّاب ، وفيما بينهما كانت تقع كل أمانيه وأقصى مطالبه من المقلة . . إلى بائع الكشرى . . إلى بائع البخت والزمامير .

إنه لايذكر أنه قدتعدى شارع الناصرية إلا مرتين . . مرة كمستكشف . . حيث دفعه دافع الفضول وحب المغامرة والشقاوة إلى أن يتجاوز الكُتّاب ، ويندفع إلى

أقصى الشارع حتى بلغ شارع الكومى وتطلع ببصره إلى مجاهل ميدان السيدة ورأى بعينى رأسه المئذنة والترام وأبصر الناس .. يغدون فى الميدان ويروحون غير هيابين ولاوجلين ، وأتم المغامرة بشرائه قطعة من « حلاوة زمان » الملفوفة على العصا الطويلة ، وأخيراً عاد إلى بيته سالماً آمناً .

تلك كانت المرة الأولى . . أما المرة الثانية فقد كانت فى العيد .. حيث خرج هو وأخته نفيسة وخاله عبدالصبور وقد لفوا العيش والسمك البكلاه فى صرة كبيرة ، قاصدين إلى « جنينة النزهة » .

ومن يومها . . لم يذهب إلى نزهة قط . . لقد كانت جنينة النزهة تقع فى حى جاردن سيتى ، وقد تبدو المسافة بينها وبين الناصرية الآن بعد أن كبر . . مسافة معقولة لايصعب قطعها سيراً على الأقدام . . أما يوم ذاك وهو يعتبر ميدان السيدة فى أقصى الأرض ، فقد كانت جنينة النزهة أبعد من الجوزاء . . لاسيما وقد كان الحذاء جديداً عقر قدمه ، وأجبره على العودة حافياً .

وفى الصبا والشباب والكهولة . . لم يضطره شىء إلى الخروج عن نطاقه الضيق المحدود بين الناصرية والسيدة ، إذ لم تكن مدرسة الناصرية الابتدائية أبعد من الكُتّاب ،

وكانت مدرسة رقى المعارف وغيرها من المدارس الأهلية الثانوية التى تنقَّل بينها لاتتعدى ميدان السيدة ، وحتى بعد أن فشل فى المدارس وتاب عليه ربنا من تعب الدراسة وقرف الامتحانات ورزقه بابن الحلال الذى سعى إلى توظيفه .. كان مقر عمله لايتجاوز شارع الدواوين . واستمر راقداً بين جدران أرشيف وزارة المالية عشرين عاماً .. كأنه خطاب حكومى عاجل ! !

ولم يكن هناك مايدعو شملول افتدى إلى التفكير فى الرحيل أو المغامرة ، وهو القعود الكسول البطىء الحركة .. الذى كف عن النزهة ، منذ مشوار «جنينة النزهة» والذى كانت أقصى متعته الجلوس على قهوة الانشراح القائمة على ناصية الشارع حيث يلعب عشرة طاولة ويشد أنفاساً من الشيشة .

ولقد قضى الرجل حياته عزباً .. لمجرد أنه يكره التغيير من حال إلى حال ، واستمر يعيش مع أمه وأبيه بنفس الوضع والكيفية التى كان يعيش فيها وهو طفل فى الكتاب

وعلى ذلك فيمكننا أن نرى مبلغ وقع المفاجأة فى نفس والديه عندما نبأهما ذات يوم أنه سيسافر .

لقد ضربت أمه بيدها على صدرها وصاحت مذعورة

ـ مسافر .. برّه وبعيد .. تف من بقك سبع تفات .
إيه ياخويا الكلام اللى زى السم اللى صابح تقوله ع الصبح .

ـ يام مسافر أتفسح .

ـ تتفسح ؟ ! وهوّا انت ناقص فسحه ، مانت طول النهار قاعد على القهوه .

ـ رايح اشم الهوا .. أغيّر مناظر .

ـ ياخويا اتحط .. آل مسافر يشم الهوا .. وهىّ مصرضاقت ، عندك أم الشعور ، عندك سيدى أبوالسعود ، كل ده مش مقضيك ؟

ـ أنا معزوم عند واحد صاحبى فى المكتب ، ساكن فى قليوب ، فى بيت وسط المزارع والخضرة ، وبقاله آدى ست اشهر يلح علىّ عشان أقضى يوم عنده .. نصطاد سمك ونركب خيل .

ـ أصلك شملول قوى .. وصيد السمك لزومه إيه ؟ وهو السمك اللى عندعبد المعطى وحش .. اقعد وأنا أبعت أجيب لك حتتين جزل على حتتين بياض تاكل صوابعك وراهم .

ـ مش الغرض يام ..

ـ أمال إيه يادلعدى ؟

— الواحد عايز يغير شويه . . عايز يجرى بين الغيطان فى الشمس والهوا . ويقعد على الترعه يشم النسيم ، ويتمتع يوم فى العمر بحياة الريف .

— يابنى اعقل ، دانت عمرك ماعتبت برّه الشارع .

— عشان كده عايز أسافر . . حافضل طول عمرى كده محبوس فى الناصرية !! ياشيخه حرام عليك دانا عمرى ماركبت قطر سكه حديد .

وهكذا أصر شملول على السفر واعتبر المناقشة التى جرت بينه وبين أمه بمثابة استئذان فى السفر ، وذهب إلى الديوان وبنفسه إحساس المقدم على أمر جلل ، ولم يكد يلتقى بعلى افندى القليوبى حتى ساق إليه النبأ الخطير وهو أنه قد اعتزم أن يلبى مطلبه وأنه سيسافر إليه اليوم بعد الظهر ، ويبيت عنده ليلته ويقضى يوم الجمعة بأكمله ثم يعود فى المساء .

وانتهى موعد العمل وذهب كل منهما إلى داره بعد أن اتفق مع القليوبى على أن ينتظره فى المحطة حتى يقوده إلى البيت الذى يبعد بعض الشىء عن المحطة وسط المزارع .

وعاد شملول إلى داره وأخذ يكوم ملابسه فى إحدى الحقائب القديمة ، وأمه تنظر إليه فى دهشة وتتساءل :

— يابنى ليه داكله ؟

— مين يعرف .. أهو من باب الاحتياط .. يمكن الواحد يعوز غيار والا حاجه .

— هىّ مش ليله اللى انت ناوى تقضيها ؟

— أيوه ليله ، لكن الواحد لازم يعمل حسابه دايماً ، ده سفر .. انتِ مستهونه بالسفر .. يمكن القطر يتعطل فى السكه ، أو يمكن المواصلات تنقطع بين مصر ، وقليوب .. مش جايز .. مش برضه الواحد يعمل حسابه .

وهكذا غادر الدار وقد حمل الحقيبة ، وارتدى معطفاً أبيض كان لأبيه فى سالف الزمن .. واغرورقت عينا أمه وهى تودعه وتقبله ، وجلس أبوه على سجادة الصلاة ، يضيف إلى استغفاره من سابق ذنوبه دعوات لتحفظ ابنه وتعيده من سفره بالسلامة .

وسار شملول افندى بهيكله القصير النحيل ، وأشداقه المطبقة ، وأجفانه الغائرة ، وقد نفخ صدره ورفع رأسه ، وأخذ يختال فى مشيته بين أهل الناصرية .. ولم ينس أن يمر على المقلة فيملأ جيوبه باللب لكى يستعين بقزقزته على طول السفر ، وابتاع رطلين بسبوسة من « أبوعلى الحلوانى » حتى لايدخل على صاحبه ويده فارغة .. ثم تلكأ فى طريقه برهة

امام المعلم كرشه الجزار . وصاح به بصوت عال أن يؤجل إرسال الممبار والمخ إلى الجمعة القادمة لأنه مسافر ، وكرر كلمة مسافر بضع مرات حتى سمعتها زكيه بائعة الفجل . . التى كان بينها و بينه استلطاف خفى متبادل .

وخرج صاحبنا من حى الناصرية منتفخ الأوداج كأنه ذاهب إلى ميدان قتال ، ووقف فى شارع خيرت ينتظر ترام نمرة ١٢ الذاهب إلى المحطة ، ولم يطل به الانتظار حتى استقر على مقعد الترام بجوار السائق . . وَزَمَّرَ الكمسارى وانطلق الترام فى سيره .

وشيئاً فشيئاً بدأت الشجاعة تتبدد والهمة تزول ، ولم يكد الترام يتجاوز ميدان لاظوغلى حتى أحس برهبة شديدة وبدأ يستعرض فى ذهنه الأخطار التى يمكن أن يمر بها ، والمهالك التى يوشك أن يتعرض لها .

ألا يحتمل أن يكون قد ركب الترام خطأ . . وقد يحمله إلى حيث لا يريد ؟ ! حقيقة أنه قرأ رقم ١٢ ، ولكن من يدريه أن بصره لم يخدعه ؟ وعلى أحسن الفروض أنه قد أصاب الترام المضبوط ، ماذا تراه فاعلا عندما يلقى به الترام فى باب الحديد ، ذلك الفضاء الواسع المضطرب ؟

وبدأ يتصور جرائد الصباح وقد كتب على رأسها بالخط

العريض الأحمر « موظف بأرشيف وزارة المالية . . يضل فى باب الحديد » . . يا للخجل ! ويا للكارثة ! . ولكن . . لا . . لا . . لابد أنه سيجد من يدله .. حقيقة أنه يخجل من السؤال ، ولكن لابد له منه .

ووسط هذه الهواجس والأوهام ، وجد الترام يقف فجأة فى باب الحديد .. أجل ! هذا هو تمثال نهضة مصر . . وتلك هى ساعة المحطة .

واندفع شملول افندى من الترام كالقذيفة ، خشية أن يتحرك الترام قبل أن يهبط منه .. ولم يجد هناك معنى لمخاوفه السابقة ، والمحطة أمامه تكاد تصرخ قائلة « أنا المحطة » .

ولكن المشكلة الكبرى .. كانت فى كيفية العثور على القطار الذاهب إلى قليوب ، وفى كيفية قطع التذكرة . . إن هذه مسألة فى منتهى الخطورة . . فليس بمستبعد أن يركب قطاراً خطأ ، يلقى به فى غياهب القطر المصرى . . وليس بمستبعد كذلك أن يذهب إلى شباك الدرجة الأولى فيلهف بائع التذاكر الجنيه الذى يملكه ويعطيه به تذكرة درجة أولى .

إن المسألة تحتاج منه إلى منتهى الحرص والتروى .

لعنة الله عليك يا قليوبى . . ما كان أغناه عن مثل هذه

المرمطة والبهدلة والملخمة . . لو لم يغره بتلك المخاطرة لكان الآن مستريحاً فى قهوة الانشراح .. يسترق البصر إلى زكيه بائعة الفجل .

وبستر من الله وجد نفسه أمام شباك الدرجة الثالثة لقطار بحرى المار بقليوب ، وبفضل الله وجد نفسه يستقر على أحد مقاعد الدرجة الثالثة بجوار النافذة ، وقد أخذ قلبه يدق خشية ونشوة وطرباً .

الحمد لله .. جت سليمه .. إن المسألة فى غاية السهولة .

وتحرك القطار ، ومرة أخرى بدأ الخوف يداخله . . وساءل نفسه ماذا يكون العمل لولم يتوقف القطار فى قليوب أيقذف بنفسه منه وهو سائر ؟ أم يعدو إلى السائق ويأمره بالوقوف .. أم يسلم أمره لله ويذهب مع القطار إلى حيث يذهب ؟

على أية حال .. لو قدّر الله وحدثت الكارثة ، فإنه لن يغادر القطار حتى يعيده إلى القاهرة .

أجل ! هذه أضمن العواقب . فإن القطار لابد عائد .. إن آجلا أو عاجلا ، إلى مقره بالقاهرة .

وأحس بالطمأنينة تعود إلى قلبه ، وبدأ يستعرض فى ذهنه المتع التى يوشك أن يحصل عليها ، ويتصور نفسه وقد

ارتدى الشورت والقبعة وأمسك بالسنارة ، وجلس على شاطىء الترعة يصطاد . . ثم يتصور نفسه وهو راكب صهوة جواد ينطلق به بين الحقول . . يا ليت زكية بائعة الفجل تراه وهو فى هذه « الأملة » . . ولكن هب الحصان قد جمح به فأوقعه فى الترعة . . فمات غرقاً . . لا . . لا . . لا داعى للحصان . . إنه يستطيع أن يدعى أنه قد ركبه . . دون أن تكون به من حاجة إلى ركوبه فعلا .

أجل ! . . لا داعى هناك لأن يلقى بنفسه إلى التهلكة . . ما دام يستطيع أن يكذب ويبالغ ويؤلف ما شاء من المغامرات والأقاصيص .

ولكن يجب عليه أن يرقب المحطات جيداً . . يجب ألا يترك ذهنه يشرد به فيضيع عليه المحطة .

« قليوب » . . أجل هذه قليوب . . الحمد لله ، إن المسافة قصيرة جداً ، أقصر مما كان يتصور .

وقفز من مقعده وتناول الحقيبة ، واندفع يعدو من القطار إلى رصيف المحطة .

ووجد القليوبى فى انتظاره فأقبل يصافحه فى شوق كأنه لم يره منذ سنين ، وهز رأسه فى إعجاب وتقدير وقال ببساطة « رحلة لطيفة ، مش بطالة » ، ووضع يده فى ذراع صاحبه

وهمّ بالسير . ولكن صاحبه لم يتحرك ، بل بدا عليه التردد وأخذ يهمهم فى اعتذار ، ثم بدأ يفصح عن همهمته قائلا :

ـ أنا متأسف أوى يا شملول افندى . . لأنى مضطر استأذن منك ، علشان انزل مصر . . لأن اختى بعتت لى عشان اروح لها حالا .. على العموم أنا مش حاغيب عليك يعنى بالكتير قوى حارجع تسعه مساء ، وانت مش غريب . البيت بيتك . . خد حريتك خالص . . أنا حاوصلك للبيت وأديك المفتاح وارجع علشان ألحق القطار النازل على مصر .

وبوغت شملول افندى من قول صاحبه . . وبدا عليه التردد ، وهمّ بأن يطلب منه العودة معه ، إذ وجد المسألة قد أضحت مغامرة فعلا .

ولكن ماذا يقول ؟

يقول إنه يخاف أن يمكث فى البيت وحده ؟

لا . . لا . . يجب أن يكون أشجع من ذلك ، وأثبت جناناً .. ماذا عليه لو بقى وحده حتى يعود صاحبه ؟ ! ثلاث ساعات ليست بالشىء الكثير .. ثم إنه ليست هناك عفاريت ولا غيلان فى قليوب .

وهكذا سار مع صاحبه ، وبدأ الاثنان يتوغلان فى الممرات الضيقة بين المزارع ويدوران يمنة ويسرة حتى توقفا

أخيراً أمام بيت أبيض متواضع أشبه بالمنادر . وقد ألحق به فناء خلفي وضعت به بعض الأقفاص الفارغة ، وتكعيبة عنب ، وبرج حمام مهجور .

وخذل شملول من منظر البيت ، وكانت الظلمة آخذة فى الانتشار ، والضوء الباهت يتبدد ، والمكان قد لفته وحشة وسكون .

ولم يكن هناك مجال للتردد ، فقد سلمه القليوبى المفتاح فى يده وقال له « البيت بيتك » ، وانطلق يعدو إلى المحطة .

ما شاء الله ، من يستطيع أن يتصور هذا ؟

أهكذا يقف وحده .. وسط تلك القفار الموحشة .. والظلمات المدلهمة ، وهو غريب ، وحيد ؟

حتى الخادم قد أنبأه صاحبه أنه سيحضر بعد برهة . .

ولكن من يدرى إنه قد لايحضر البتة !

وأحس بخوف شديد ، ولم يجسر على أن يدخل البيت بل أخذ يتجول حوله .

وصمم على أن يبقى خارج البيت حتى يأتى صاحبه ، ولكن تذكر فجأة ، ذلك الغول الذى قرأ عنه فى الصحف والذى يخرج من المزارع ويهجم على الفلاحين يوسعهم عضاً ونهشاً فأصابته رجفة ، وتخلخلت ساقاه واندفع إلى باب البيت

ففتحه وتسلل إلى الداخل . . وأغلق الباب خلفه بشدة .

ورمى الحقيبة من يده ، وأقبل على مصباح الغاز المعلق فى الحائط فرفع الشريط ، وارتمى على أقرب مقعد يرتجف من الخوف .

كيف غاب عنه هذا الخطر الداهم ؟ لو لم يتذكره لظهرت الجرائد صباحاً . . ولا شغل لها سوى . . « قتيل قليوب » .

ثم أخذ يسطر فى مخيلته نبأ الحادث .

« . . خروج وحش قليوب . . وفتكه بأحد موظفى وزارة المالية . .

بينما كان الأستاذ جمعه عبد الجواد شملول يقضى عطلة نهاية الأسبوع فى عزبة صديقه الأستاذ على القليوبى . . خرج يتجول ممتطياً صهوة جواده (هذا أهم ما فى الأمر . . حتى تعرف زكيه أنه كان يركب جواداً) » .

وهنا شرد ذهنه فترك مسألة وحش قليوب وانطلق إلى زكيه . . ترى ماذا ستفعل عندما يبلغها نبأ موته . . أتراها ستبكى ؟ لقد كانت جلستها بالأمس هائلة ، وقد تعرى باطن فخذها . . إنها لاشك تقصد أن تغريه ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل هو . . هل يغمز لها بعينيه ؟

وفجأة وصلت إلى أذنيه طرقة شديدة . . كأنها صوت

سقوط جسم ثقيل ، فقفز من مقعده ، وأخذ يدور حول نفسه ، وهو يلهث ويردد مرتجفاً « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه ليلة يعلم بها ربنا .

ولم يعد هناك مجال لأخذ زكيه ، فقد احتشد فى ذهنه كل ما يمكن من التصورات عن حقيقة مصدر الصوت .

هل هو الوحش ؟

من يدرى !

وتذكر قصة بوليسية كان قد قرأها فى رواية الجيب . . وتذكر كيف جلس بطل القصة فى كوخ موحش منعزل . . وكيف كانت الريح تصفر من حوله ، ثم سمع وقع أقدام تقترب من الباب ، ثم صوت أنفاس تتردد لاهثة فى خوف وصوت شىء ثقيل يصطدم بالباب ، ثم سمع وقع الأقدام تبتعد هاربة . . فأخذ يقترب من الباب فى خوف ، فلم يسمع شيئاً . . ففتحه فى رفق وحذر . . فإذا بجسد قتيل يهوى عليه .

ترى ماذا يفعل هو لو حدث له مثل هذا الأمر وما ذلك على هذه الليلة ببعيد ؟

وعاد ذهنه يسطر نبأ الحادث كما سيقرأ بجرائد الصباح :

« موظف يرتكب جريمة قتل فى دياجير الظلام ! »

أجل ! إنه سيتهم بالقتل ، وهو لا يكاد يقوى على قتل

دجاجة .. وكيف يستطيع أن يثبت أنه غير قاتل . . والجثة ملقاة فى فناء البيت ، ولا يوجد فى البيت سواه .

وأخذ قلبه يدق فى عنف .

لابد له من أن يغادر الدار ، حالا .

ولكن كيف يستطيع أن يخرج ؟ أيجسر على الخروج من الباب ؟

وإذا سقطت عليه جثة القتيل ؟ ماذا تراه فاعلا ؟

لا . . لا . .

يجب أن يخرج من النافذة .

هذا هو خير طريق للنجاة .

وتلفت حوله ، فوجد أمامه نافذة زجاجية . . وأسرع فحمل المصباح فى يده وأخذ فى الاقتراب منها .

وفجأة ندت عنه صرخة مدوية .

هذا هو ! ! معلق فى النافذة .

القتيل بعينه . . أو ربما القاتل .

أجل . . أجل . . لابد أن يكون أحدهما .

وإلا فمن يكون هـذا الذى تدلى ساقا بنطلونه وأخذتا تتأرجحان وراء زجاج النافذة .

والآن . . ماالعمل ؟ .

إنه ضائع ضائع . . فهو إما أن يكون قاتلا أو قتيلا .

إذا كانت ساقا البنطلون المتدليتان ساقى القتيل فهو لا بد أن يكون قاتلا ، وإذا كانتا ساقى القاتل . . فعليه العوض .

لقد انتهى .

الله يرحمك ياشملول . . ليتك سمعت كلام أمك وقنعت بقهوة الانشراح .

وفجأة سمع طرقاً على الباب .

انتهى ! ! لقد وضح الأمر . . لاشك أنه القاتل . .

وتهاوى على المقعد فى شبه إغماء .

وعاد الطرق يزداد فى إلحاح . . فأجاب فى صوت مختنق مكبوت :

— مين ؟

ومن وراء الباب سمع صوتاً نسائياً يقول :

— افتح ياعلى افندى .

من ؟ ! ! امرأة ؟ . . كيف ! ! وماذا أتى بها فى هذا الوقت الحافل بالأحداث ؟ ! أتراها هى القاتلة ؟

وتذكر ريه وسكينه ، ونهض من مقعده وأخذ يقترب من الباب على أطراف قدميه . . ثم وقف وراء الباب وأخذ يتساءل فى صوت مرتجف :

ذبسن

obeikandl.com

ـ مين ؟ . أنت مين ؟

ـ أنا سكينه ؟

سكينه ؟ ! ! أجل . . هى بعينها .

وعاد يسأل فى رعب :

ـ انت لوحدك . . والا معاك ريَّه ؟

ـ ريَّه مين ياسيدى ؟ . سلامة عقلك .

ـ أنا سكينه خدامة أختك بهيه .

ـ أختى أنا . . أنا مالياش أخت .

ـ يوه . . مالكش أخت ازاى ؟

ـ انت عايزه مين ؟

ـ عايزه على افندى القليوبى .

ـ خرج .

ـ إمال انت مين ؟

ـ واحد صاحبه .

ـ طيب افتح .

ـ مافتحش .

ـ ياسيدى افتح . . الواد على دراعى ياخد برد .

ـ واد مين ؟

ـ ابن اختك . . قصدى ابن اخت على افندى .

— مافتحش أبداً . . إلا لما اتأكد من أخينا اللى متشعلق على الشباك اللى جنبك .

— بسم الله الرحمن الرحيم ، متشعلق على الشباك اللى جنبى ؟ أنامش شايفه حاجه ؟

— أنا شايفه .. قرّبى شويه من الشباك وانتِ تشوفى ، هيه ، شوفتِ ؟ . لقيتِ إيه ؟

— يوه ياسيدى خضتنى وكركبت بطنى ، ده منطلون سى على منشور .

وهكذا اطمأن قلبه ، فأقبل على الباب يفتحه ، ووجد الخادمة تحمل ابن أخت صاحبه .

ودخلت الفتاة فوضعت الطفل على إحدى الأرائك ، ثم سألته :

— أمال فين على افندى ؟

— سافر مصر .

— يعمل إيه ؟

— أخته طلبته فى حاجه ضرورى .

— أخته ؟! وانت هنا بتعمل إيه ؟

— بتفسح . . بقضى ليله أنس وطرب . . اتفضلى ، وانت إيه اللى جابك هنا انتِ والولد ؟

— أصل الجماعه جايين يقضوا الليله هنا . عشان يتفسحوا بكره فى المزارع . عن إذنك ياسيدى ، أنا رايحه المحطه أجيب الشنط . . خد بالك م الواد .

— تعالى هنا . واد إيه اللى آخد بالى منه ؟ أنا معرفش فى الولاد أبداً ، تعالى أنا فى عرضك .

ولكن سكينه انطلقت من الباب ، ومرة أخرى وجد نفسه وحيداً فى البيت . لا يؤنس وحشته . . سوى الطفل الراقد . . .

ماشاء الله . . أما ليله !

وارتمى مرة أخرى فى مقعده ، وهو يرمق الطفل بنظرة شك وخوف .

لا بأس عليك .. المسألة ان تزيد على خمس دقائق تحضر بعدها سكينة والقافلة كلها ، ويستطيع هو أن يعود إلى داره آمناً مطمئناً .

ولكن الخمس دقائق مرت . . دون أن يحضر أحد .

ومرت بعدها ساعة ونصف ساعة ، وهو جالس يحملق فى الطفل وبدأ الطفل يتقلب على جنبيه ثم فتح عينيه وأخذ يرمق شملول أفندى ، ثم انطلق فى نوبة بكاء وصراخ .

بس . . بس .. هوه . . هوه .

وهكذا أراد أن يهدى الطفل عبثاً .

لا .. إن الأمر لايحتمل . يجب أن يخرج ليرى أين ذهبت الخادمة اللعينة .

وفتح الباب وأخذ يتحسس طريقه فى الفناء . . ولكنه أحس بقدمه تصطدم بجسد لين .

آه . . إنها جثة . . هذه المرة لاشك فيها . . إنه القتيل . الذى سمع صوت سقوط جثته منذ ساعتين .

واندفع يعدو إلى داخل الدار وأغلق الباب بشدة وارتمى على المقعد لاهثاً .

والآن ماذا يفعل ؟ إنه لا يستطيع الخروج . أبداً !

هذا القتيل يجب أن ينتظر إلى الصباح حتى يكتشفوا أمره وليصرخ الطفل كما شاء !

وأغمض عينيه ودفن وجهه فى كفيه .

ومرة ثانية سمع طرقاً على الباب .

من ؟ ! من يكون هذه المرة ؟

سكينه ! !

ربما . . .

وبصوته المرتجف صاح من وراء الباب :

— مين ؟

فأجابه صوت أجش عميق :

ـ أنا . . افتح .

لا . . لا . . إنه لن يفتح أبداً .

وعادت الطرقات تزداد . وصاح الصوت الأجش :

ـ افتح . . افتح .

وانكمش فى مقعده . وعلا صراخ الطفل ، وبدا كأن صاحب الطرقات قد يئس . . فانصرف عن الباب .

الحمد لله .

ولكنه لم يغب طويلا . . حتى عاد الطارق ومعه بضعة جال ، وازداد الطرق شدة .

وصاح شملول بصوت مرتجف :

ـ مين ؟

ـ افتح بقول لك . . أنا محمود الخفير .

وفتح الباب فإذا به أمام الخفير ورجلين من رجال الشرطة ، وصاح محمود الخفير موضحاً للعسكريين :

ـ أنا كنت راقد هنا لقيت واحد خبطنى بالرجل فى ضهرى ، على بال مافتحت عينى لقيته جرى استخبى فى البيت و قفل الباب عليه ؟

وصاح أحد العسكريين بشملول :

— بتعمل إيه هنا ؟

— بتفسح .

— بتتفسح ؟ . لوحدك . . كده ! مفيش حد معه

— أيوه . لوحدى كده . مامعيش غير الولد الصغير ده .

— ودا يبقى مين ؟

— والله ماعرفش . . اسألوا سكينه .

— سكينه ؟ ! هو انت ؟ ! !

وأطبق العسكريين على رقبته وساقاه أمامهما كأنهما قد عثرا على مجرم طال البحث عنه .

وصاح به أحدهما وهو يدفعه إلى الأمام :

— أمال فين الفلوس ؟

— فلوس إيه ؟

— الفلوس اللى سرقتها البت ، ياضلالى يانصاب ، تغوى البت وتخليها تاخد الواد والصيغه وتهرب من أسيادها . . دانا حاخلى ليلتك سوده .

— أسود من كده ؟

وسار شملول أمام العسكريين حتى وصلا إلى المركز .

وهناك علم أن سكينة قد هربت وهى تنزه الطفل من بيت أخت على القليوبى وسرقت بعض المصوغات (أوهكذا

اتهمت) وأنها لم تجد طريقة للتخلص من الطفل غير تركه فى بيت خاله على القليوبى مدعية أن سيدتها ستأتى فى أعقابها ثم تفر كما فرت .

وجلس شملول فى المركز والأومباشى ينظر إليه بين آن وآخر ويسأله متهكماً :

— والبت مستنياك . والا زاغت منك ؟ آه يافلاتى . . يانصاب .

ولم يجب عليه شملول فقد كان مشغولا بترتيب ماسوف تنشره صحف الصباح !

« موظف محترم يغوى خادمة ! »

أو « اغتصاب وسرقة واختطاف ؟ »

« حدث فى منتصف ليلة أمس أن ضبط أحد موظفى وزارة المالية يحمل مسروقات تقدر بعشرة آلاف جنيه . وهو يحمل فتاة وطفلا » (هل يستطيع أن يحمل الفتاة والطفل ؟ يستطيع أو لا يستطيع هذا هو الذى سيقال) .

وشرد ذهنه فى سكينة . . وتصور نفسه يحملها . ويلف ذراعه حول خصرها ويضع كفه تحت إبطها ويلمس صدرها .

وهكذا خرج عن الموضوع وبدأ يقارن بين سكينة وزكية . . لا . لا . إن زكية ، أحسن كثيراً . إن بطن فخذها

أكثر امتلاء . ولكن كيف يحكم ، وهو لم يرخذ سكينة ؟

وأحس بيد الأمباشى تجره من عنقه وتسوقه إلى الزنزانة .

ودخل شملول الزنزانة . . فأحس بالاطمئنان لأول مرة فى الليلة . . إنها على الأقل تعنى خاتمة المطاف ، وهو يستطيع أن يرقد آمناً بين جدرانها الأربع .

وفى الصباح استيقظ على صوت صديقه على القليوبى يوقظه ويعتذر إليه عن كل ماحدث وينبئه أنهم قد قبضوا على سكينة ويختم اعتذاره قائلا :

ـــ بالله بينا بقى ياعم نتشطف ونفطر ونطلع نصطاد .

ـــ لا ياعم .. حد الله بينى وبينك ، ورينى سكة المحطه ياخويا . . توبه إن سبت الناصريه وحى السيده .. هوّا فيه أحسن من قهوة الانشراح ؟

فهرس

الإهـــداء ٧

المقدمة ٩

الشيخ زعرب وآخرون ١٣

حسن أفندى ٣٣

زكيه الحنش ٥٥

عبد البر أفندى ٧٩

ميدو قلب الأسد ١٠١

أم نجية ١٢٧

الواد عطوه ١٤٧

عبد الجادر عبدالدليل ١٦٧

عبد ربه الصرماتى ١٩١

الحاج قطه ٢١٥

سى جمعه ٢٣٧

الاستاذ شملول ٢٦٣

obeikandi.com